

الأولى مرة بالفرنسية

# مذكرات خير الدين بربروس

ترجمة: د. محمد دراج



كل الحقوق محفوظة  
الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

رجمك : 7-1-9963-9961-978

رقم الإيداع : 2857-2010

تنفيذ وتصميم : شركة الأصالة للنشر



شركة الأصالة للنشر والتوزيع  
الجزائر العاصمة

تلفون : 21.762897 فاكس : 21.762157

جوال : 560.193010

E-mail : elassalah@hotmail.com

ELASSALA EDITION & DISTRIBUTION ALGER - ALGERIE



elbordj.blogspot.com

## شكر وتقدير

إن إخراج هذا الكتاب قد استهلك عشر سنوات من عمر الزمن لكي يصدر في شكله الحالي بعد أن تضافرت على دفعه إلى الوجود جهود الكثير من الأصدقاء والزملاء الجزائريين والعرب والأتراك على حد سواء .. وعليه فإنني مدين هؤلاء جميعا بأفكارهم واقتراحاتهم وملاحظاتهم ودعمهم الطعنوي والمادي الذي أسهم في نشره بأقل قدر ممكن من الأخطاء ..

فإلى هؤلاء جميعا أهدي هذا الجهد الطنواضع ..



## مقدمة المترجم

كم هو جميل أن يرى المرء حلمه يتحقق بعد سنوات طويلة من الانتظار والترقب، يقضيها متقلبا بين الخوف من الفشل والأمل في أن يرى طريق النجاح يلوح في الأفق ..

كان هذا الإحساس يراودني وأنا أخط الكلمات الأولى التي قمت بترجمتها من هذا الكتاب المتميز الذي أملاه البحار العظيم خير الدين بربروس على زميله ورفيقه في الجهاد البحري الشاعر الأديب سيد علي المرادي.

إن هذا الكتاب يستحق عن جدارة بأن يوصف بأنه متميز في موضوعه وأسلوبه وغايته .. فهو متميز في موضوعه لكونه يمثل رواية حية، أملاها خير الدين بربروس على رفيقه المرادي، بناء على أمر من السلطان سليمان القانوني، بغية التعريف بالخطوات التي سار عليها الإخوة بربروس منذ خروجهم من جزيرة ميديلي MIDILLI، إلى أن تمكنوا من حكم الجزائر وطردهم الإسبان منها، والتصدي لحملاتهم على سواحل الجزائر، وإنقاذهم لآلاف المهاجرين الأندلسيين من مذابح الإسبان.

وأما تميزه من حيث الأسلوب فإن المذكرات قد كتبت بلغة سلسة، يفهمها حتى من ليس لديه أية فكرة عن الوجود العثماني



في شمال إفريقيا عامة والجزائر خاصة. بل يفهمها حتى من لم يكن يملك أدنى خلفية تاريخية تتعلق بموضوع الكتاب. ذلك لأن خير الدين لم يكن عالم دين ولا مفكرا ولا مؤرخا ولا كاتباً ولا فيلسوفاً؛ بل كان مجاهداً خرج يطلب إحدى الحسينين: النصر على الأعداء أو الاستشهاد في سبيل الله، حسبما صرح بذلك عند أول نزوله مع أخيه عروج في جزيرة جربة بتونس. حيث قال خير الدين لأخيه: «ما دام الموت هو نهاية كل حي، فليكن في سبيل الله».

وأما تميزه من حيث الغاية فإن القارئ سوف يلاحظ بأن خير الدين -بإملائه لهذه المذكرات- كان يهدف إلى بيان كل الحوادث التي شارك في صنعها بنفسه أو أمر بها أو تمت تحت قيادته وأمرته. كما يلاحظ في حديثه الإحساس بالحماسة المتدفقة، والتفاعل الشديد مع حيثيات الأحداث.. لقد كان بارعا في شدّ القارئ إليه وجعله يشاطره مشاعره وأحاسيسه، وهو يخوض معاركه دفاعاً عن الجزائر أو انتقاماً من الإسبان على إثر غارة قاموا بشنها على إحدى سواحل تونس أو الجزائر. كما يدفعه -أي القارئ- إلى مشاطرته الإحساس بنشوة النصر، عندما يصف عودته من الغزو وهو يجر سفن الأعداء المثقلة بالغنائم، التي يسارع فور نزوله بمرسى الجزائر أو جيجل أو تونس، بدفع خمسها لخزينة الدولة، ثم يخصص الفقراء والأوقاف بقسم كبير منها، قبل أن يوزع على رجاله حصصهم، جاعلاً من نفسه آخر

من يأخذ نصيبه. إن القارئ يشعر بأن صاحب المذكرات قد نجح إلى حد بعيد في استفزازه، ودفعه إلى الانحياز إليه، وهو يروي يوميات الحرب، ودفاعه عن كل المواقف التي وقفها نحو خصومه ومناوئيه في الجزائر وأعدائه في الخارج. فهو بذلك لم يكن يسلك مسلك المؤرخ بحياديته ومنهجيته الصارمة في رواية الأحداث، بل كان يسلك مسلك المحامي عن حق مغبوب، جعل استعادته هدفاً وغاية يعيش ويموت من أجلها.

ونرى بوضوح تأثير الخطاب الديني على الأسلوب الذي كتبت به المذكرات، كتعبير لا شعوري عن مدى ما وصل إليه الصراع الدائر -يومئذ- بين العالمين الإسلامي، ممثلاً في الدولة العثمانية ومن كان منضوياً تحت لوائها، وبين العالم المسيحي، ممثلاً في إسبانيا ومن كان تحت قيادتها أو حليفاً لها. ولأجل ذلك نلاحظ عبارات: الجهاد والشهادة ووصف العدو وكل من ينتمي إليه أو يلوذ به بأوصاف الكفر والنفاق تتكرر على مدى صفحات هذه المذكرات.

وقد آثرت الإبقاء على هذه التعبيرات كما وردت في أصلها التركي، لكي يتمكن القارئ من معايشة الأحداث وأجوائها المشحونة كما لو كان معاصراً لها. ولم أحاول التدخل في صياغتها أو التخفيف من خشونتها، لكونها تعكس ثقافة العصر وذهنيته



السائدة وتمط تفكير المسلمين ونظرتهم إلى أعدائهم، بسبب جرائم القتل والسلب والاختطاف التي قام بها الإسبان في وهران وبجاية وتونس وطرابلس الغرب والأندلس، وشاعت أخبارها في سائر أنحاء الجزائر.

لقد كنت -ولا زلت- مقتنعا بأن هذا الكتاب مرآة للعصر الذي كتب فيه بقيمه ومفاهيمه وطبيعة العلاقات التي كانت تربط الناس. ولم يكن لي من الترجمة سوى نقل النص الأصلي بأمانة إلى القارئ العربي، لينظر إلى الأحداث والأشخاص والممالك التي كانت سائدة، بنفس المنظار الذي كان ينظر به خير الدين بربروس ومن عاصره لأحداث ذلك العصر من خلال المعاشة اليومية لها في البر والبحر.

وعليه؛ فإنني التزمت -منهجيا- بأن لا أقوم بأي حذف أو زيادة أو تحوير للنص الأصلي عن مساره إلا بالقدر الذي تفرضه الصياغة العربية للنص المترجم، وذلك بإضافة روابط لم تكن موجودة في النص التركي، أو بالتقديم والتأخير في تركيب الجمل، بحذف الضمير أو استبداله بالاسم الظاهر أو العكس، ونحو ذلك من التراكيب العربية التي تهدف إلى البناء السليم للنص العربي.

وأما العناوين التي يلاحظها القارئ في هذه المذكرات، فهي لم تكن موجودة في النسخ المخطوطة، وإنما قام الأستاذ أوزتونا

ÖZTUNA" بإضافتها، تسهيلا للقارئ على فهم الأفكار الجزئية التي تضمنتها المذكرات. وقد صرح هو بذلك في مقدمة الكتاب. والمؤكد هو أن هذا الكتاب تم إملأه باللغة التركية العثمانية في عصر السلطان سليمان القانوني وبأمر منه، غير أننا لا نعرف يقينا تاريخ كتابته، ولا مكان وجود النسخة الأصلية التي أملاها خير الدين بربروس. إلا أن للكتاب نسخ عديدة متناثرة في مختلف مكتبات إسطنبول والفاتيكان وبرلين والقاهرة ومدريد وباريس ولندن. وتعد نسخة الفاتيكان أقدم نسخة للمذكرات. وقد نشر الكتاب عدة مرات باللغة التركية الحديثة، من طرف المؤرخ والصحفي التركي يلماز أوزتونا YILMAZ ÖZTUNA الذي قام بتهديه ونشره لأول مرة في مجلة الحياة التاريخية : HAYAT TARİHİ MECMUASI التي كانت تصدر في إسطنبول في الستينيات من القرن الماضي، قبل أن يقوم بجمعها ونشرها في كتاب مستقل سنة 1989. وكان الكاتب التركي أرتوغرول دوزداغ ERTUĞRUL DÜZDAĞ قد قام قبل ذلك بنشرها في سنة 1975 بعد تحويلها إلى رواية ملحمية وذلك باسم: BARBAROS HAYREDDİN PAŞA'NIN HATIRALARI

(1) ناشر المذكرات باللغة التركية الحديثة بعد تهذيبها وحذف الديباجات الطويلة والتعابير التي لم تعد مستعملة اليوم.



أي: «مذكرات بربروس خير الدين باشا».  
ثم قامت بعد ذلك قيادة البحرية التركية بتهذيب ونشر هذه المذكرات سنة 1995 باسم: **GAZAVÂT-HAYRETTİN PAŞA**.  
أي: «غزوات خير الدين باشا». وذلك بعد إدخال تحويرات كبيرة على النص الأصلي أفقدته أصالته وروح العصر الذي كتبت فيه.

وابتداء من القرن التاسع عشر تمت ترجمة الكتاب إلى لغات عديدة، منها: المجرية<sup>(1)</sup> والإيطالية<sup>(2)</sup> والإسبانية<sup>(3)</sup>. وصدر بأسماء مختلفة وبتعديلات كبيرة، منسوبا إلى غير محليه أو كاتبه وإنها باسم: مؤلف مجهول تارة أو بأسماء من قام بترجمته والاقتباس منه تارة أخرى. فغدت تلك النسخ المترجمة أو المقتبسة وكأنها كتب أخرى لا صلة تربطها بنسختها الأصلية، سوى احتفاظها

- (1) ترجم إلى المجرية من طرف جوزيف ثوري **Joseph Thury** باسم: **Török Történeti** ونشر في بودابست سنة 1896 في جزئين.
- (2) ترجمه إلى الإيطالية الحديثة أستاذ اللغة والأدب التركي بجامعة نابولي البروفيسور ألدو غلوطة **Aldo Galotta** ونشره باسم: **«Le Gazavât di Hayreddin Barbarossa, Studi Magrebin»**. **Università Orientale, III, Napoli 1970, s. 79-180**.
- (3) ترجم إلى الإسبانية الحديثة من طرف لوبيز غومارا **F. Lopez Gomara** باسم: **«Cronica de los Barbarajas»**.

يسير الأحداث التي تضمنتها تلك المذكرات.  
ونظرا لأهمية هذه المذكرات في الدراسات التاريخية العثمانية فإنها قد حظيت باهتمام خاص لدى المؤرخين والباحثين الأتراك<sup>(1)</sup> والغربيين<sup>(2)</sup>. إذ اعتمد عليها جُلُّ المؤرخين الأتراك الذين جاءوا

- (1) كما فعل المؤرخ الموسوعي التركي كاتب جلبي في كتابه: «محفة الكبار في أسفار البحار» حيث صرح بأن ما ينقله من الحوادث التي جرت في غرب البحر المتوسط تستند إلى مذكرات خير الدين بربروس.
- (2) يتجلى اهتمام الباحثين الغربيين بالمذكرات في ترجمتهم لها إلى المجرية والإيطالية والإسبانية في وقت مبكر، وذلك لكونها تسلط الضوء على محطات مهمة من تاريخهم في عصر بربروس. كما اعتمد عليها المؤرخ الألماني جوزيف هامر في كتابه الموسوعي الذي كتبه في أكثر من عشرة أجزاء وسماه: التاريخ العثماني، وترجم إلى التركية ونشر باسم: **OSMANLI TARİHİ**. كما كتب عنها أستاذ اللغة والأدب التركي في جامعة نابولي البروفيسور الإيطالي: ألدو غلوطة **Aldo Galotta** عدة مقالات ونشر المذكرات في شكلها الأصلي وعلق عليها تعليقات هامة جدا. قبل أن يقوم بترجمتها إلى الإيطالية الحديثة كما سبقت الإشارة إلى ذلك من قبل. وأما المؤرخون والباحثون العرب فلا أعلم أحدا اهتم بها أو أشار إليها أو اعتمد عليها في تاريخه للمرحلة الأولى من الوجود العثماني بالجزائر سوى ابن رقية التلمساني في كتابه: «الزهرة النائرة فيما جرى للجزائر حين أغارت عليها الجنود الكافرة». حيث لاحظت أنه اعتمد بشكل شبه

## محتوى المذكرات وموضوعها

وللوهلة الأولى يتوقع القارئ أن يكون الكتاب مجرد سيرة ذاتية يتحدث فيها خير الدين بربروس عن نفسه وعائلته وأولاده وحياته الخاصة، كما هو معهود في كتب السيرة الذاتية. غير أن متصفح المذكرات يلاحظ خلوها بشكل شبه كامل من الإشارة إلى الأمور الشخصية والعائلية المتعلقة بخير الدين، إلا ما كان منها متعلقا بسير الأحداث التي عاصرها. بل إن صاحب

Barberousse, Villeneuve sur Lot 1873.

H.G. Yurdaydm. Murâdî ve Eserleri, Belleten, XXVII-107, Ankara, VII.1963, s. 453-466.

Svat Soucek, Sources dealing With the Barbarossa Brothers, Güne-doğu Avrupa Araştırmaları Dergisi, II 1972, 63-72  
Aldo Galotta, Gazavât-ı Hayreddin Paşa di seyyid Murâdi, Studi Magrebinî, XII, Napoli 1983.

Mehmet Özkan, Barbaros hayrettin Paşanın Türk denizcilik tarihindeki yeri.

(رسالة ماجستير في التاريخ الحديث بجامعة غازي، تركيا).

Gülşah Oktay, : 18.Yüzyıla ait Bir Barbaros Hayrettin Paşa Gazavat naması üzerinde sentks incelemesi .

(رسالة ماجستير في الأدب الإسلامي التركي بجامعة سلجوق، تركيا).

بعد بربروس في التأريخ للمرحلة التي واجهت الدخول العثماني إلى الجزائر، بالإشارة إليها تارة ويتجاهل ذلك تارة أخرى<sup>(1)</sup>.

كلي على المذكرات في نقله للأحداث المتعلقة بالجزائر حيث نقل الأحداث المتعلقة بعصر خير الدين بربروس دون أن يشير إلى ذلك على عادة أهل عصره الذين لم يكونوا يهتمون بذكر مصادر مؤلفاتهم. (1) مثلما فعل المؤرخ التركي رضا سيفي في كتابه: «خير الدين بربروس» الذي لم يصرح بأنه استقى معلوماته من مذكرات هذا الأخير. وبمقارنة بسيطة بين ما جاء في كتاب رضا سيفي وما جاء في المذكرات يخرج بانطباع أن سيفي قام باختصار المذكرات وصياغتها من جديد. ونفس الشيء فعله المؤلف المجهول الذي تُرجم كتابه من التركية إلى العربية باسم: «غزوات عروج وخير الدين» ونشره عبد الكريم عبد القادر بالجزائر سنة 1934 وترجم إلى الفرنسية من طرف: من ساندرو رانغ Sander Rang وفرديناند ديز Fernand Denis وذلك باسم: Fondation de la Régence d'Alger, Histoire des Barbarousses, Chronique Arabe du XVI<sup>em</sup> siècle, Expédition de Charles-Quint, IL Paris 1837

ومن الدراسات التي نشرها الباحثون الأتراك والغربيون حول المذكرات نذكر على سبيل المثال:

N. Âsim, Gazavât-ı Hayreddin Paşa, Tarihi-i Osmânî Encümeni Mecmûası, 1-4 s. 233-238; 1.10.1926-1910

H. De Grammon, Le R'azuat est-il L'Oeuvre de kheireddine



المذكرات بشرع مباشرة في سرد الأحداث التي جرفته وأخوته لاقتحام عالم الجهاد البحري<sup>(1)</sup>، ويستمر في سرد الأحداث وتطورها انطلاقاً من جزيرة ميديلي - مسقط رأس الإخوة بربروس - ليتوقف قليلاً في شبه جزيرة رودس، حيث كان أروج رئيس أسيراً عند فرسان القديس يوحنا، لينتقل بعد ذلك إلى سلطان مصر ودخول أروج في خدمته، قبل أن ينتهي به الأمر إلى الرسو في جزيرة جربة، حيث يلتحق به أخوه خير الدين. فيقرران الاتصال بالسلطان الحفصي في تونس الذي أقنعه بأن يسمح لهما في الرسو في ميناء حلق الوادي، ويتخذاه

(1) خربت صفحا عن استعمال تعبير القرصنة لأنها تعني لصومية البحر، والقرصنة ليسوا سوى لصوص وقطاع طرق ومغامرين، يهدفون إلى الاستيلاء على الأموال والممتلكات دون أي اعتبار ديني أو سياسي. والتأمل في العمليات العسكرية التي كان يقوم بها البحارة العثمانيون وغيرهم، يلاحظ أنها كانت تهدف إلى الدفاع عن المسلمين في السواحل الإسلامية والمساهمة في إنقاذ المسلمين في الأندلس، والانتقام من سفن وسواحل الدول والممالك المعادية. فهي إذن عمليات عسكرية يقوم بها أفراد مسلمون قبل أن ينظم ذلك ليتحول إلى حالة حرب مفتوحة على كل الجبهات بين الدولة العثمانية انطلاقاً من الجزائر ثم من تونس وليبيا من جهة، وبين إسبانيا وغيرها من الممالك المولية لها من جهة ثانية.

قاعدة للجهاد هما، على أن يدفعاً إليه خمس ما يحصلان عليه من الغنائم ويبيعا ما زاد عن حاجتهما في أسواق تونس.

ومن تونس تتلاحق عمليات الجهاد البحري، لتبلغ ذروتها بالاستقرار في الجزائر وما رافقها من ثورات متتالية تولى قيادتها والتحريض عليها الزعماء المحليون، بتحريض من الإسبان وسلاطين بني زيان في تلمسان وبني حفص في تونس. وخلال ذلك كان خير الدين يسرد بتفصيل دقيق غزواته البحرية ضد السفن والسواحل الإسبانية أو التابعة لها والمتحالقة معها، وكذا حملات الإسبان على المراسي الجزائرية.

ولم يغفل خير الدين الحديث عن تطور علاقاته بالدولة العثمانية، وإعلان تبعيته للسلطان العثماني باعتباره خليفة المسلمين، وما واكب ذلك من تقارب في الرؤى والمواقف السياسية. الأمر الذي أفضى إلى تنويع ذلك الولاء بتعيين خير الدين قائداً عاماً للأسطول العثماني حاملاً لقب قبطان داريا، وهو أعلى رتبة عسكرية في البحرية العثمانية. فأثبت خير الدين أهليته وكفاءته العالية في قيادة الأسطول العثماني بتحقيقه انتصاراً باهراً في معركة بروزة PREVEZE على السراجل الإيطالية سنة 1538. تلك المعركة التي كانت بين الأسطول العثماني والتحالف الصليبي بقيادة البحار الجنوبي أندريا دوريا. فكان من أثر ذلك الانتصار أن تمكن العثمانيون من فرض



سيطرتهم على البحر المتوسط أكثر من ثلاثين عاما. وأسهب خير الدين في الحديث عن محاولة الإمبراطور شربل كان غسل عار هزيمته في بروزة بتجريد حملة كبيرة تحت قيادته لغزو الجزائر واحتلالها سنة 1541 مستغلا غياب خير الدين، ليمنى مرة أخرى بهزيمة منكرة على يد حسن باشا بن خير الدين الذي كان نائبا عنه في الجزائر. هذه الهزيمة التي دفعت الملك الإسباني إلى اعتزال السياسة، والاعتكاف في أحد الأديرة ليموت بعد ذلك ببضعة أشهر من شدة القهر، حسبما أشار إلى ذلك خير الدين في مذكراته.

بعد هذه الحملة بقليل تتوقف المذكرات تقريبا عند سرد الحوادث التي تلتها، لأن خير الدين كان قد عاد إلى إسطنبول ولم يرجع إلى الجزائر سوى مرة واحدة. وذلك سنة 1543 ليقود منها حملة بحرية على فرنسا إلا أنه لم يشر إليها في مذكراته لأنه كان قد فرغ من إملائها حسبما يبدو<sup>(1)</sup>.

(1) في سنة 1543 قاد خير الدين حملة على فرنسا بناء على استنجد ملكها فرنسوا الأول بالعثمانيين، وذلك لتحرير بلاده من الاحتلال الإسباني. وتوجت هذه الحملة بطرد الإسبان تماما من الأراضي الإسبانية.

### القيمة التاريخية لهذه المذكرات

لا شك أن بهذه المذكرات تعد في غاية الأهمية من حيث قيمتها التاريخية، باعتبارها مصدرا أصليا وأساسيا لتلك المرحلة. فهي شهادة خير الدين على أحداث عصره التي صنعها بنفسه، وساهم في صناعة قرارات الحرب والسلم بين الدولة العثمانية وإسبانيا ومن حالفها من الممالك الأوروبية. وبصرف النظر عن العنصر الذاتي في هذه المذكرات وغياب عنصر الحياد في رواية الأحداث، إلا أن ذلك لا يقلل من أهميتها الكبيرة في نقل الكثير من الجزئيات الدقيقة التي قلما نجدها في المصادر التاريخية الأخرى.

ففضلا عن يوميات الأحداث وتفاصيلها الدقيقة التي رواها خير الدين في مذكراته، نلاحظ أنها اشتملت على معلومات تاريخية تعد نادرة جدا لا تكاد توجد في غيرها من المصادر العربية أو التركية أو الأجنبية التي أرخت لتلك المرحلة. فمنها على سبيل المثال: تلك التي يتحدث فيها عن رغبته في غزو أمريكا واستثذانه للمصدر الأعظم إبراهيم باشا في ذلك عندما قابله في حلب<sup>(2)</sup>، وتهكمه بأندريا دوريا حينما علق على محاولته احتلال

(2) انظر الصفحة 168.

الجزائر بقوله بأنه وأهم في خلقه أن الجزائر مثل العالم الجديد<sup>(1)</sup>، وأنه بإمكانه أن يبني الجزائريين ويفضي على الإسلام مثلها فعل أسلافه مع الفتود الحمر، مما يعطي للقارئ انطباعاً بأن خير الدين كان على دراية بالمجازر التي اقترنها الإسبان في أمريكا المكتشفة حديثاً، وأن البلاد التي وصلوا إليها إنما هي قارة جديدة بينما الإسبان كانوا لا يزالون يتوهمون بأنهم قد وصلوا إلى الهند.

اشتملت المذكرات أيضاً على بيان أحد أهم أهداف حروب الدولة العثمانية ضد إسبانيا، وهي رغبة السلطان سليمان القانوني في غزو إسبانيا وفتحها من جديد<sup>(2)</sup>، حيث استدعى خير الدين إلى إسطنبول لأجل هذه الغاية لاستشارته في هذا الموضوع، قبل أن يغير رأيه ويستبدله بتعيين خير الدين بربروس قائداً عاماً للأسطول العثماني.

كما يفند خير الدين في هذه المذكرات المقولة التي ما فتى الباحثون الغربيون يشيخونها، والمتمثلة في أنه فرض نفسه حاكماً وسلطاناً على الجزائر، بينما واقع الأحداث -حسبنا- ورد في المذكرات يبين بأن خير الدين إنما قبل ولاية الجزائر بناءً على

(1) انظر الصفحة 206.

(2) انظر الصفحة 165.

توسلات ملحة وعديدة من أعيان وعلماء مدينة الجزائر وغيرها من كانوا يرسلون إليه الوفود يرجونه أن يقدم عليهم ويتولى إدارتها بنفسه<sup>(1)</sup>. ذلك لأن الأهالي لم يكونوا يرضون بالخضوع لأحد سواه. فقد رفضوا ولاية ابن القاضي في الجزائر، مثلما رفض أهالي تلمسان قبلهم ولاية سلطاتها الزياني الذي تحول إلى العموية في يد الإسبان. فلم يكن لخير الدين من خيار سوى الخضوع لضغوط العلماء والأعيان والقبول بأن يكون حاكماً على الجزائر. وهذه الشهادة بلا شك تُحرس الأصوات التي لم تتوقف عن ترديد -دون خجل- إسطوانة الاستعمار التركي للجزائر!!!

كما يذكر خير الدين في مذكراته تفاصيل دقيقة جداً عن طبيعة العلاقة بين السلطة العثمانية -التي كان يمثلها في الجزائر- والقيادات الدينية والسياسية في الجزائر وكيف كان يتم التعامل مع كلا الفئتين خلال الأزمات. ويورد بشكل صريح تأرجح موقف الأهالي من الأتراك بين الولاء والعداء ومدى تأثيرهم بالدعاية التي كان يشيعها خصومه من الزعماء المحليين بغية إثارة الناس ضده. وهذه التفاصيل بلا شك تعد في غاية الأهمية بحكم معاصرة خير الدين لها من جهة، ومباشرة لها من جهة

(1) انظر الصفحة 119-120.



ثانية؛ الأمر الذي أعطى للمذكرات أهمية مضاعفة وأكثر خصوصية لتعلقها بالتاريخ المحلي خلال المرحلة الأولى من الوجود العثماني بالجزائر.

ولا يفوتني في هذه المقدمة أن أسجل أسفي الشديد على سبق الباحثين العربيين في اكتشاف هذه المذكرات في وقت مبكر جداً وتوجيهها إلى لغاتهم، سيما تأخرنا نحن الباحثين العرب عامة والجزائريين خاصة عن ذلك بالرغم من كونها تسلط الضوء على الكثير من المحطات الغامضة في تاريخنا خلال المرحلة العثمانية، ونجيب على العديد من التساؤلات التي أكثر الباحثون الغربيون وأشباههم حولها البعض.

هذه وأرى أنه من الضروري أن ألفت انتباه القارئ إلى أن إخراج الكتاب في شكله الحالي اعترضه العديد من الصعوبات والصعوبات أخرت صدوره عشر سنوات. ولم يكن في وسعي أن أقدمه للقارئ العربي والجزائري في شكل يقل من قيمته قبل أن يستقر الأمر على إصداره في طبعتين.

أولاً: موجهة للقارئ المادي غير المتخصص الذي يهتم أن يتعرف على شخصية خير الدين بوبروس من خلال مذكراته، وعلى تاريخ الجزائر من خلال رواية صانع أحداثها، كما يهتم أن يقرأ كتاباً مترجماً من اللغة التركية إلى العربية بقلم باحث جزائري.

الطبعة الثانية، موجهة للقارئ المتخصص والباحث المهتم بأدراست التاريخ، المتعلقة بالمرحلة العثمانية في الجزائر، والذي يعنيه التوقف عند الحقائق التي اشتملت عليها المذكرات، ومصدرتها من ورد في غيرها من المصادر.

وعليه فطبيعي أن تقتصر هذه الطبعة على الحد الأدنى من التعليقات وهوامش التي لا تشوش على القارئ المباحث واسترساله مع الأحداث. وكلي أمل في أن يتمكن من إصدار الطبعة العلمية في وقت لاحق مذيبة بكل ما هو ضروري من توضيحات وتعليقات وهوامش تساهم في إزالة اللبس عما ورد في المذكرات من غموض يتعلق بالأحداث أو الأشخاص.

وأخيراً أأمل أن أكون قد وفقت إلى إخراج الكتاب بلغة عربية سليمة وحالية من التكلف والإغراب، وأقل قدر ممكن من الأخطاء، التي يمكن أن يزيغ عنها البصر خلال التصحيح والمراجعة ودون أن يشعر القارئ بأنه يعبر من النص التركي إلى النص العربي على جسر من الألفاظ والتعبير المرهقة لعقله.

الجزائر: 27 رمضان 1432 هـ

الموافق لـ: 06 سبتمبر 2010

د محمد دراج

للتواصل: derradj2010@gmail.com

# المذكرات



## بدأت إملاء مذكراتي بأمر من السلطان سليمان

### القانوني

في أثناء اتصالي بالسلطان سليمان خان بن سليم خان، ورد عليّ فرمان "FERMAN" سبطاني، هذا نصه:

«كيف خرجت أنت وأخوك عروج "URLU" من جزيرة ميديلي MIDILL، وفتحتم الحزائر؟ ما الغزوات التي قمتم بها في البر والبحر حتى الآن؟ دُون كل هذه الحوادث بدون زيادة أو نقصان في كتاب، وعندما تنتهي أرسل إليّ نسخة لأحتفظ بها في خزانتي».

عندما استلمت هذا الأمر، استدعيت أحد أرباب القلم، زميلي في الكثير من غزوات البحر «المرادي»، وأخبرته بفرمان السلطان فدأنا على الفور في التدوين، أنا أملي و«المرادي» يكتب:

(1) فرمان: أمر سبطاني.

(2) ورد سمه في جميع المصادر والمراجع لتركية باسم أوروچ -بالتاء المدعومة في الشين بحيث يقرأ: أورووش- غير أنني أثرت تعريبه وفق ما هو معروف في المصادر والمراجع العربية معاً للبس وليس إقراراً بالخطأ الشائع

## استقرار أبي يعقوب آغا في ميديلي وزواجه بأمي

عندما فتح السلطان محمد الفاتح جزيرة ميديلي أمر الأتراك بالاستيطان في الجزيرة. فكان أبي أحد المستوطنين الأوائل، وأبنا لأحد فرسان السباهية "SİPAHI" كما كان هو نفسه ساهيا أيضاً، وكانت له في منطقة واردة VARDAR المجاورة لسلانيك SELANIK أرض إقطاع، وهبت له بأمر من السلطان محمد الفاتح عندما استقر بالجزيرة

وهكذا، فعندما انتظمت أمور والدي من جديد تزوج إحدى بنات أهالي الجزيرة. كان أبي أنيقاً شجاعاً أنجبت له أمي أربعة أحوة هم: إسحاق الذي كان أكبر إخواني ثم أخي

(1) السباهي: في المراجع العربية تدعى: «الصباهية» وهو خطأ.

وهو اصطلاح يطلق على الفرسان الذين كانت تجهدهم الدولة العثمانية مقدس امتدادتهم من أراضي الإقطاع التي كانت تمنح لهم لقاء دفع صرية لخراج الخربة الدولة، فصلاً عن إلزامهم بالمساهمة في تحمل نفقات الحرب والاشتراك في الحرب بنفسه عند حاجة إليه انظر

M.Zeki Pakalın, Osmanlı Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü, İstanbul 1993, 3/92.

عروج ثم أنا حضر ثم إلياس، مد الله في عمر الجميع ورزقهم النصر.

كان أخي إسحاق مقيماً في قلعة ميديلي، أما أنا وأخي عروج فقد كنا مولعين بركوب البحر. وعليه فقد اقتنى أخي عروج سفينة وانطلق بها للتجارة في البحر، بينما اتخذت أنا مركباً ذا ثمانية عشر مقعداً.

كما في البداية تنقل بين سلايك وأغريبوز AGRIBOZ، يجلب منهما البضاعة وبيعها في ميديلي، إلا أن أخي عروج لم يقتنع بهذه الأسفار القريبة. إذ كان يرغب في الذهاب إلى طرابلس الشام. ودات يوم غادر ميديلي مع أخي الصغير إلياس متوجهين إلى طرابلس.



قلعة فيديلي (تقع في جزيرة ليسبوس باليونان)

## وقوع أخي عروج أسيراً في أيدي كفار جزيرة رودس ومكوثه عندهم بضع سنين

لم يتمكن أخي عروج من الوصول إلى طرابلس الشام، فقد صادف في طريقه سفن فرسان جزيرة رودس RODUS واشتبك معهم في معركة كبيرة سقط على إثرها أخي إلياس شهيداً رحمه الله، بينما استولى الكفار على السفن وأخذوا عروج أسيراً بسقيته إلى رودس مقيداً بالسلاسل.

عندما وصل الخبر إلى ميديلي حزنت وبكيت عليه كثيراً، لكنني شرعت في الحال أبحث عن سبيل لإنقاذ أخي.

كان لي صديق كافر يدعى غريغو KRİGO يقوم بالتجارة مع جزيرة رودس أخذته معي في سهيستي وقدمت به إلى بودروم BODRUM، وقلت له:

«اليوم تبين الصداقة حذ هذه الشامية عشر ألف أقة \* AKÇE وأعني على إنقاذ أخي. أذهب إلى رودس وانظر الأمور هناك، وسوف أنتظرك في بودروم».

\* أقة : عملة فضية كانت تستعمل في الدولة العثمانية، يقابلها الدرهم في ذلك العصر انظر: المصدر السابق، II 31



غريغو: «على الرأس والعين» قال ذلك ثم مضى إلى رودس حيث قابل أخى عروج رئيس هيك وقال له:

«أخوك خضر يسلم عليك ويدعوك كثيرا، وهو في غاية الحزن عليك بسبب وقوعك أسيرا في أيدي الكفار، ولا يكاد يكف عن البكاء عليك ليلا أو نهارا. وقد أرسلني إليك وهو الآن في بودروم ينتظر أخبارا سارة عنك».

عندما سمع عروج ذلك من غريغو بكى من شدة الفرح وقال له:

«سلم على أخى خضر يجب أن لا يعلم أحد سبب قدومك إلى الجزيرة وسنلتقي في أول فرصة تتاح لنا».

كان عروج رئيس يعرف في رودس رجلا مشهورا يدعى سانترولو أوغلو SANTURLUOĞLU، كان يأتي أحيانا لرؤية أخى ويتفقد أحواله، قال له أخى يوما:

«إن فرسان رودس لن يبيعوني لأخى خضر، لكنهم ربما يبيعونني لك فإن هربتني من الجزيرة فإنني سوف أؤدي لك دينك في المستقبل».

- سانترولو أوغلو:

«بكل سرور، إذا باعوك فإنني سأشتريك. لكنني إذا طلبت منهم ذلك مباشرة فإهم سيشتبهون في الأمر فالأفضل أنك عندما تنزل إلى المدينة ذات يوم تظاهر بمرورك على دكاني،

وإياك أن تنظر إلى الدكان مباشرة لئلا يعلموا بأنى أعرفت. سأتظاهر بأنى أراك صدقة عندما تكون ماراً وأعتبر لهم عن إعجابي بك، وإني لأرجو أن يبيعك الفرسان لي».

عندما سمع عروج هذه الكلمات سر كما لو صار طليقا، كم كانت حياة الأسر أليمة بالنسبة له.

في أحد الأيام كان سانترولو أوغلو جالسا أمام الدكان يتبادل أطراف الحديث مع فرسان جزيرة رودس، وإذا به يرى عروج رئيس ماراً أمام الدكان كأنه يريد الذهاب إلى الخدمة فقال لمن معه من البحارة:

«لمن هذا الأسير الذي يغدو ويروح، أراه دائما يمر من هنا يخدم بحيوية ونشاط، لو يقبل صاحبه بيعه لاشترته». عندئذ قال أحد القباطنة

«أنا صاحبه، إذا تريد شراءه أبيعك لك؟».

- «كم تريد؟».

«أريد ألف دينار».

- «هذا مبلغ كبير».

«حسنا أتركه لك بشماتة».

وقبل أن تتم عملية البيع ألغيت الصفقة. لأن فرسان رودس قد بلعهم أن عروج تاجر معروف. وقالوا لبعضهم:

«إن أخاه خضر رئيس في بودروم، وهو مستعد لدفع

عشرة آلاف دينار وأسير قيمته عشرة آلاف هل يعقل أن يباع  
ثمانمائة؟»

أعادوا لسانتورلو أوغلو ماله واستعادوا عروج. لقد  
علموا قيمته الحقيقية من غريغو، الذي كان قد احتال عليّ في  
الثمانية عشر ألف التي دفعها له وأعلم الفرسان باستعدادي  
لإيقاد عروج

وعلى إثر هذه الحادثة ألقى الرومانيون عروج في رنزة  
تحت الأرض لكي لا أجد أية حيلة تمكسي من إنقاذه. وجعلوا  
يعذبونه أكثر من ذي قبل، ووضعوا الأعلال في يديه ورجليه  
وعنقه إلا أنهم كانوا يعطونه من الطعام ما يسدّ به الرمق.

لم يتمكن عروج من تحمّل هذا العاء كثيرا فطلب مقابلة  
ضابط الزبنة التي تحس فيها فأذن له في ذلك وعندما خرج  
سأله الضابط.

«لماذا جئت؟»

«ما الذي تريدونه من وراء هذا الإيذاء الذي تلحقونه  
بي؟»

«اعلم أيها التركي، كيف تحاول إنقاذ نفسك بدفع ثمانمائة  
دينار؟ إن أحاك خير الدين رئيس ينتظر إنقاذك بهال الدنيا في  
بودروم، فهل تظن أنه لا علم لنا بذلك أم تظن أننا حقى؟»

«كم تريدون أن أدفع لكم لإطلاق سراحى؟»  
«وأنت كم تدفع؟ كم تقدر نفسك؟»

«أنا أقدر نفسي بجميع محصول الروملي من الشعير  
وجميع المصاريف اليومية التي تدفع في الأناضول، بالإضافة  
إلى مائة ألف دينار أدفعها لكم!!!».

«أيها المجنون استمر في سخريتك، سوف ترى كيف تكون  
عاقبتك»

بعد هذه المحاورة أمر الضابط الخاق رئيس السجّانين  
بمعاملة عروج أسوأ مما كان يعامله من قبل، فأنزعح عروج  
كثيرا من هذا الوضع وفي إحدى الليالي كان يبكي ويدعو في  
ررأته وحيدا.

«يا رب: أنت الذي نهب الفرج للعاجزين، فأغث عبدك  
الضعيف بجاه حبيبك ﷺ، وعخل إنقاذي من ظلم هؤلاء  
الكافرين».

قصي عروج تلك الليلة يدعو في ذلّة وانكسار حتى سقط  
في الحمأة وغلبه النوم من شدة التعب، فرأى في مامه شيخ  
مشرق الوجه يقول له:

«يا عروج، لا تحزن بسبب ما أصابك من الأذى في سبيل  
الإسلام فإن خلاصك قريب».



استيقظ عروج في غاية السرور لهذه الرؤيا وقد تلاشت همومه وانشرح صدره. وفي ذلك الصباح اجتمع كل قباطنة رودس وجعلوا يتشاورون في أمر عروج. فقال أحدهم:

«إن أعمال البحر ليست ثابتة، اليوم عروج وغدا نحن. أرى أن الاستمرار في إيذاء هذا التركي ليس صوابا».

وعلى هذا فقد قرروا إحراج عروج من الزنرانة، وتقييده في إحدى السفن حيث صار أسيرا جديفا بها، ومع هذا فقد كان يقول:

«إن العمل في الجذف على سطح البحر نعمة بالنسبة لمن رأى الأذى تحت الأرض. يا رب لك الحمد، فقد رأيت وجه العالم».



قلعة بودروم بجزيرة رودس

### فرار آخي عروج من سفينة فرسان رودس ونجاته

في تلك الفترة كان الأمير قرقود \* KORKUT واليا على أنطاليا ANTALYA، وكان قد تعود على أن يشتري في كل سنة مائة أسير تركي من فرسان جزيرة رودس ويعتقهم في سبيل الله. وفي تلك السنة أرسل حاجبه إلى رودس لعداء الأسرى، فقام الرودسيون بهزهم وتسليمهم إليه. وكانت الاتفاقية تقضي بأن يُحمّل الأسرى في سفينة رودسية إلى سواحل أنطاليا، فمن تقدير الله تعالى أن يقع الاختيار على السفينة التي كان عروج مقيدا بها لنقل الأسرى. ونظرا لقيمة عروج فإن الرودسيين لم يجعلوه ضمن المائة أسير الذين سيتم الإفراج عنهم.

كان عروج رئيس رجلا خفيف المزاج يتكلم الكثير من اللغات لا سيما الرومية التي كان يتقنها بشكل لا مثيل له، وكثيرا ما كان يتبادل أطراف الحديث مع القباطنة الرودسيين.

\* الأمير قرقود: الابن الثالث لسلطان بايزيد الثاني، والأخ الأكبر لسلطان سليم الأول اشتهر بحمايته للبحارين الأتراك. قتله السلطان سليم الأول بعد جلوسه على عرش السلطنة في 1512. (7) ولعل ذلك لأن أمه كانت رومية حسبما صرح خير الدين في بداية المذكرات، وطبعي أن يتقن لغة أمه التي كانت تحدث بها.

الدين يحيثون إلى سميتته. وذات يوم قال القاطنة لعروج:

«أيها التركي: أنت رجل حلوا الحديث، خصوصاً بلساننا الذي تعرفه جيداً. ما الذي وجدته في الإسلام؟ تعال ادخل في ديننا وسوف يكون لك شأن كبير بيننا!!».

فأجابهم عروج قائلاً:

«أيها المجانين: كل شخص يروقه دينه. هل يوجد نبي أفضل من النبي محمد ﷺ لأؤمن به؟».

- «إذن لتبق على حالتك، وننظر كيف يخلصك نبيك من أبدينا. والآن لتستمر في الجذف...».



## يجب أن تحذروا من عروج

قال قسيس السفينة التي قيّد فيها عروج للقاطنة محذراً. «يجب أن تحذروا عما يقوله عروج، فلا تتحدثوا معه كثيراً. إنه يبدو متعلماً ويعرف عن الإسلام أكثر مما أعرف عن المسيحية إياكم أن تغفلوا فهو ملحد قادر على إضلالكم جميعاً».

رست السفينة الرودية في مكان موحش قريب من أنطاليا، حيث أنزل حاجب الأمير فرقود ومعه المائة أسير، فتركوا هناك وفي تلك الليلة كانت تهبّ رياح معاكسة، قرر الروديسيون سسها انتظار الصباح. ثم قاموا بأنزال قارب السفينة والمصيّ لصيد السمك. في هذه الأثناء هبت عاصفة شديدة لم يتمكن القارب سسها من الرجوع إلى السفينة، فرسى في مكان بعيد عن الساحل انتهز عروج هذه الفرصة التي لم يكن فيها أحد يستطيع أن يرى الآخر من شدة الظلام الذي كان يحيط على المكان، محلّ قيوده وألقى بنفسه في البحر قائلاً: «بسم الله الرحمن الرحيم» وراح يستبح حتى وصل إلى الساحل بسلام.

سجد شكراً لله ثم سار حتى وصل إلى قرية تركية وبينما هو يلتفت يميناً وشمالاً باحثاً عن شيء يستدل به على مكان وجوده إذا به يجد أمامه عجوزاً تركية تقول له:

«يبدو أنك قد جئت من سفر بعيد يا بني؟ تعال انزل عندي

ضيفا في هذه الليلة».

أخذت العجوز عروج رئيس إلى بيتها وأحضرت له الطعام. فأطعمته وسقته وعيّرت له ملابسه، وأمضى عشرة أيام في تلك القرية التي كان أهلها يختصمون على استضافته في كل ليلة.

وأما الروديسيون فإنهم عندما حلّ الصباح وجدوا مكان عروج حاليًا، فأدركوا أنه قد تمكن من الفرار. وعندما يشوا من العثور عليه راحوا يتسائلون في حيرة وقلق: «بأي وجه سنعود إلى رودس؟».

رجعوا إلى رودس والحسرة تأكل قلوبهم. وأما قسيس السفينة فقد أعلمهم بأن «معرفة عروج بالسحر هي التي مكنته من الفرار».

ودّع عروج العجوز وغادر القرية متوجّها إلى ميديلي، فبلغ أنطاليا خلال ثلاثة أيام فلقي هناك رجلا مشهورا يدعى «عي رئيس» الذي كان يملك سفينة من نوع قليون\* KALYON

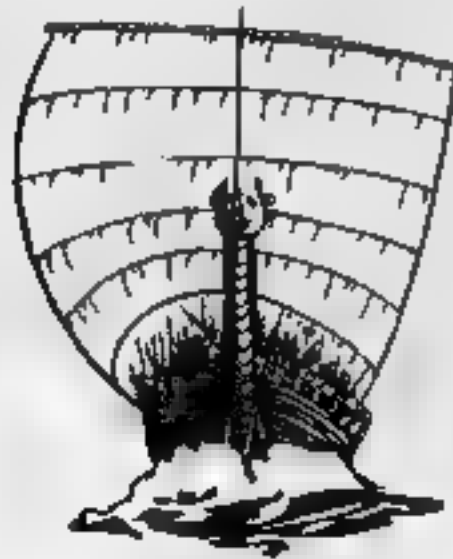
\* قليون سفينة حربية ذات أشعة هوائية، يقوم بدفعها الجداهون من أسرى الحروب. كانت تستعمل قبل اكتشاف السفن البخارية انظر

Osmanlı tarihî Deyimleri ve Terimleri sözlüğü.c.II.s.153-154

يتاجر بها بين الإسكندرية وأنطاليا. وقد بلغته شهرة عروج رئيس. فرحب به قائلا:

«أهلا وسهلا بك يا بني، إن السفينة ليست لي فحسب، بل هي سفيتك أيضا»، ثم لم يلبث عروج أن صار قبطانا ثانيا لسفينة علي رئيس.

في هذه الأثناء ينسحب من الانتظار في بودروم فرجعت إلى ميديلي. وعندما وصل أخي إلى الإسكندرية بعث من هناك رسالة إلى ميديلي شرح لي فيها معامرتي، فسُررت كثيرا بنجاة أخي وخلاصه من الأسر.





## أخي يدخل في خدمة سلطان مصر

سمع سلطان مصر بشهرة أخي فدعاه للقدوم عليه، وعندما مثل بين يديه عرض عليه الدخول في خدمته. ذلك لأن السلطان كان يريد أن يبعث بأسطول إلى سواحل الهند<sup>(1)</sup>. وإذا وافق عروج على عرض السلطان فإن هذا الأخير قد عينه قائدا للأسطول. كتب السلطان مرسوما ملكيا إلى والي أضنة ADANA أمره فيه بأن يرسل إلى ميناء باياس PAYAS بخليج الإسكندرون ما يكفي لصناعة أربعين قطعة بحرية من الأخشاب. فأعد والي أضنة الأخشاب المطلوبة وأرسلها إلى ميناء باياس، فخرج

(1) في هذه الفترة تمكن البرتغاليون من اكتشاف الطريق إلى الهند عن طريق الالتفاف حول إفريقيا وجعل القراصنة البرتغاليون يعبرون على السفن الإسلامية المحملة بالبضائع القادمة من الهند. وإضافة ذلك كانوا يعترضون سفن الحجاج ويستولون عليها بعد قتل من عليها من الحجاج أو بيعهم رقيقا. كما أنهم لم يكتفوا بذلك؛ بل صاروا يعتنقون على السواحل الإسلامية في الهند وشرق إفريقيا المطلّة على المحيط الهندي والبحر الأحمر. فشكّوا بذلك خطراً كبيراً على الملاحة الإسلامية، الأمر الذي جعل السلطان المملوكي يسعى لبناء أسطول قدير على حماية السواحل الإسلامية هناك، ويجعل على رأسه قبطا كموأ فكان اختياره لعروج بندرج في هذا السياق

عروج في ست عشرة سفينة إلى باياس لأحد الأخشاب على أن يتجه بعدها إلى مصر.

علم الروديسيون بأن عروج قد صار قائدا لأسطول سلطان مصر فراحوا يترقبون الفرصة للقضاء عليه، وعندما بلغهم مجيؤه إلى باياس قاموا بالإغارة عليه بأسطول كبير. أدرك عروج رئيس خطورة موقفه فقام بسحب جميع سفنه إلى البر، وانسحب ببهارته إلى داخل الأراضي العثمانية، حيث صرهم إلى بلادهم، بينما عاد هو إلى أنطاليا، وهناك أمر بصناعة سفينة ذات ثمانية عشر مقعدا أغار بها على سواحل رودس، ولم يعط الكافرين فرصة لالتقاط أنفاسهم.

قال الأستاذ الأعظم\*:

«لقد ظهر قرصان يدعى عروج رئيس يملك سفينة ذات ثمانية عشر مقعدا لا يكاد ينجو منه أحد. إنه يقوم بالاستيلاء على أموالنا وإحراق بلادنا، وكثيرا ما يأسر أطفالنا ويأخذهم إلى طرابلس الشام حيث يبيعهم في أسواقها، حتى صرنا لا نقلد على ركوب البحر خوفا من شره. لقد كنت حذرتكم

\* الأستاذ الأعظم: لقب كان يطلق على رئيس دولة رودس في ذلك العصر. انظر: تعليق الأستاذ يلماز أوزتونا على هامش مذكرات خير الدين بربروس ص: 17.

وقلت لكم لا تخرجوا هذا التركي من الزنانة من تحت الأرض، لكنكم لم تسمعوا قولي فأخرجتموه وجعلتموه جذافا في السفينة هيا اذهبوا وتخلصوا منه بسرعة».

انطلق الروديون حلف عروج في خمس أو ست قطع بحرية وراحوا يبحثون عنه في كل مكان. وأحيرا عثروا على سفينة راسية في أحد المراسي، فقاموا بإحراقها، إلا أن أخي تمكن من النجاة بمن معه من البحارة وعاد إلى أنطاليا.

أجذت سفينة عروج إلى ميناء رودس وشهر بها على رؤوس اخلاق، إلا أن عدم تمكن الفرسان من أسره وقتياده إلى رودس أثار سخط الأستاذ الأعظم الذي صرح فيهم قائلا:

«نعم هذه السفينة لعروج، لكنه ليس موجودا فيها»<sup>11</sup>.

في الوقت الذي رحع فيه عروج إلى أنطاليا كان الأمير قرقود بن السلطان بايريد الثاني قد صدر تكة TEKKE بأنطاليا، وتوجه إلى ساروخان SARUHAN التي عين واليا عليها. وكان للأمير قرقود خازن يقال له: بيالة باي PIYALE BEY، وهذا الأخير كان عروج قد أهدى إليه علما إفريجيا، كما كانت

(1) لا يقصد المعنى الصوفي المعروف، بل هو اسم كان في أنطاليا التي كان للأمير قرقود ابن السلطان بايريد الثاني أميرا عليها في هذه الفترة.

تربطها صداقة حميمة. وعندما وقع عروج في هذه الظروف الصعبة وبقي بدون سفينة قم بيالة باي يذكر ذلك لسيده الأمير قورقود فقال له

«إن عروج رئيس عدد من عبيدكم المجاهدين، وهو يقوم بمجاهدة الكفار ليلا ونهارا. لقد انتصر عليهم في معارك كثيرة، غير أنه فقد سفينته وهو يرغب في أن تتفضلوا عليه بسفينة يغزو عليها».

كان الأمير قورقود قد بلعته شهرة عروج، ولأجل ذلك أبدى استعدادا لتحقيق رعة عروج بسرور وعليه فدعاه للمثول بين يديه وعندما جاءه احتفى به وقال له مُسَلِّيًا

«لا تأس فإني لن أدعك بدون سفينة»، ثم لم يلبث أن كتب إلى قاضي إزمير كتابا يقول له فيه.

«إذا بلعك كتابي هذا، عليك أن تأمر بصنع سفينة من نوع قاليتة \* KALİTE دون تأخير حسب رغبة ولدي عروج، وذلك ليتمكن من مجاهدة الكفار عليها»

\* قاليتة إحدى السفن الحربية التي كانت مستعملة قبل اكتشاف السفن البخارية. تحتوي على 20 25 مقعدا تستعمل على وجه الخصوص بطاردة سفن العدو. انظر

Osmanlı Tarih deyimleri ve terimleri sözlüğü.c.II.s.151.

كما قدم بيالة باي بكتابة أمر إلى رئيس الجمارك بإزمير جاء فيه:  
«إن عروج أخونا في الدنيا والآخرة فلا تحرمه من عونك.  
عليك أن تأمر بصنع سفينة ذات اثنين وعشرين مقعداً وأن تقوم  
بالإشراف عليها بنفسك. كما يجب عليك أن تقوم بتسليمها  
إلى عروج في أقرب وقت ممكن، وأن تكتب جميع مصاريف  
تجهيز السفينة في حساب سيدي الأمير قورقود»

جاء عروج إلى إزمير فسلمت له السفيتان في الموعد  
المحدد: إحداهما تلك التي كان قد أهداها له الأمير قورقود  
وأما الثانية فكانت ملكاً لبيالة باي قد وضعها هذا الأخير تحت  
تصرف عروج

قام عروج بتجهيز السفيتين وجمع بحارته وانطلق بهم إلى  
فوجا FOÇA، كانت سفينة عروج ذات أربعة وعشرين مقعداً  
وأما سفينة بيالة باي فقد كانت ذات اثنين وعشرين مقعداً  
لقد تم صنع هاتين السفيتين خلال ثلاثة أشهر ونصف

قام عروج بتجهيز السفيتين وجمع بحارته وانطلق بهم إلى  
ميساء فوجا ومن هناك توجه إلى مانيسا MANISA، حيث نزل  
في قصر بيالة باي، ومكث عنده ضيفاً ثلاثة أيام قبل أن يمضي  
للمشول بين يدي الأمير قورقود فبالغ الأمير في الشاء عليه  
والدعاء له بالنصر في غزواته.

ودع عروج الأمير قورقود وبيالة باي في مانيسا، ثم عاد

إلى فوجا، وأمضى تلك الليلة مستغرق في الدعاء والعبادة. وفي  
الصباح الباكر من اليوم التالي أقبلع بسفنه، فلقى بعد بضعة  
أيام من خروجه سفيتين من سفن السدقية VENEDIK في  
عرض البحر، فاستولى عليهما. كن في السفيتين أربعة وعشرون  
ألف دينار، فأخذت هذه الأموال وغيرها غنيمة. لقد صار  
البحارة أغنياء بذلك المال. كيف لا يستعنون وقد حازوا دعاء  
ابن عثمان الأمير قورقود. إن من فاز بدعاء السلطان تكون  
عاقبته خيراً ومن دعى عليه السلطان فإنه يظل غرق في بحر  
المصائب لا يخرج منها.

حاص عروج هذه المعركة في سواحل بوليا \* PULYA،  
ومن هناك توجه إلى سواحل الروم فصادف في عرض مياه  
جزيرة أغريبوز \* AGRIBOZ ثلاث سفن أخرى تابعة للسدقية  
عندما رأى كمار السدقية سفن عروج رئيس شرعوا في إطلاق  
قدائهم عليه، فشرع عروج بتشجيع بحارته بعدرات حماسية  
دفعتهم إلى الإقدام على مهاجمة السفن التي كانت قد حوّلت

\* يسمى الأتراك ولاية «أنوليا» التي تقع جنوب شرق إيطاليا «بوليا»

انظر تعليق الأستاذ ديمر أور تونا على المذكرات ص 19

\* أغريبوز جزيرة يونانية، تقع جنوب شرق اليونان على ساحل بحر  
إيجة



البحر إلى جحيم بقذائف مدافعها.

اقتربت السفن من بعضها البعض، فقفز البحارة إلى سفن الكفار واستولوا عليها بعدما أخذوا مائتين وخمسة وثمانين أسيراً وقتلوا مائة وعشرين من بحارتها.

نقلت الأموال التي كانت في السفن إلى سفن عروج رئيس. فكانت السفن تبدو كالسلحفاة من ثقل الغنائم التي كانت تحملها؛ فقدموا بها إلى ميديلي في احتفال كبير.

استقبلت أنا وأخي إسحاق عروج في الميناء رفقة جميع أقاربنا، فسلمنا على بعضنا البعض وتعاثنا بحرارة وشوق كبيرين؛ ذلك لأنه كانت قد مضت سنوات طويلة على مغادرة عروج رئيس لميديلي.

قرر أخي عروج مغادرة ميديلي إلى إزمير لمقابلة ولي نعمته الأمير قورقود وأخيه بيالة ناي. وفي هذه الأثناء بلغنا خبر جلوس السلطان سليم خان على عرش السلطنة، ومعاداته لأخيه الأمير قورقود الذي فر من شدة الخوف<sup>(1)</sup>.

(1) هو السلطان قانصو العوري KANSU GAVRI (ت. 1516)

آخر سلاطين دولة المماليك في مصر. قتل في معركة مرج دابق بين العثمانيين والمماليك حيث تم القضاء على دولة المماليك وحلّ العثمانيون محلهم في إدارة البلاد التي كانت خاضعة لهم.

حزن أخي عروج كثيراً لهذا الخبر، فقال له أخي الأكبر إسحاق:

«يجب أن تعجل بالخروج من هنا وتقضي هذا الشتاء في الإسكندرية، ثم ننظر ما الذي يحدث؟ إن السفينة التي لديك من إحسان الأمير قورقود، فقد يصيبك من ذلك ضرر».

وقبل أن يبقى لأخي عروج وقت لإطعام حرارة الشوق ودّع كل منا الآخر وعادر ميديلي. فاستولى في سواحل جزيرة كربة KERPE على سبع سفن للعدو مضى بها إلى الإسكندرية.

عندما وصل إلى هناك علم السلطان بوصوله مع يحيى رئيس بسبع سفن مشحونة بالغنائم كان عروج رئيس في غاية الخرج من سلطان مصر بسبب فقده السفن التي مسحها له، وذلك عندما استولى عليها الروديسيون حينما أغاروا عليه في باياس. ولكي يفوز بعفو السلطان فقد خصّ هذا الأخير بعدد من السفن من أموال الغنائم كما اختار أربع جوارى وأربعة علمان وقدمها له. فسّر السلطان بذلك كثيراً وأحسن ضيافته هو وورثاقه ثم قال له:

«إن الله عفوٌ يحب العفو. لقد عفوت عنك يا قبطان عروج. حقيقة لقد تركت ستة عشر مركباً محترقاً لكك لم تدع أحداً من البحارة الذين كانوا فيها يُصابون بأذى، فأثقتهم جميعاً ولم تترك أحداً منهم يقع في الأسر. فأنا لم أسف لاحتراق سفني إذ الأيام

دول، وكل شيء يمكن أن يحدث، وإني أسمت لعدم محبتك إلي.  
لقد عفوت عك وأشكرك إذ أخذت بخاطري من جديد.  
قال ذلك وبلغ في إكرام أخيه وكافاه بأكثر من الهدايا التي  
أتحفه بها.

استأذن أخيه وعاد من القاهرة إلى الإسكندرية. وكان  
السلطان قد كتب أمرا إلى واليه بالإسكندرية يأمره فيه بإكرام  
أخيه ورفاقه، فقام الوالي بذكر مهم وحسن صيافتهم، ثم مكّن  
أخيه من قضاء وقت ممتع هناك.

حين الربيع فكتب أخيه إلى السلطان يستأذنه في الخروج  
للفزو فأذن له بذلك، فركب البحر متوجها إلى سواحل قبرص  
حيث استولى على خمس مراكب تابعة للبندقية، ومن هناك توجه  
نحو الغرب فوصل إلى جزيرة جربة بتونس حيث باع غنائمه  
لتجار الجزيرة. فكان نصيب كل بحار خمسة وعشرين ذراعا  
من حوح<sup>١</sup> سدقية وأربع بنادق وأربعة مسدسات ومائة وواحد  
وسعين ديناراً ونصف.

وجد عزّوح سفينة داهية إلى الإسكندرية فبعث فيها إلى  
سلطان مصر أغلى أنواع الجوخ والبنادق والمسدسات بالإضافة  
إلى غلام في الثالثة أو الرابعة عشر من عمره. فقال السلطان لما

(١) الجوخ: نوع من أنواع الأقمشة المسوجة من الصوف.

وصلته تلك الهدايا:

«إذا كان في هذه الدنيا أحد يرضى حق السعة ويعرف الفضل  
لأهله فهو وليد القبطان عزّوح».

دعا السلطان لأخيه كثيرا وتوثقت أواصر المودة بينهما.  
وأما أخيه فقد استمر في اقتصاص سفر الأعداء في سواحل  
جربة، حيث عنم في هذه الغزوات ما بين خمس أو عشر سفن  
أخرى.



## ظننت أن العالم كله صار ملكا لي

تعالموا نتعرف على أوضاع البلاد. عندما جلس السلطان سليم خان على العرش وقع خلاف بينه وبين أخيه الأمير قورقود، فأرسل إليه السلطان سليم جيشا لم يدع مكانا لم يبحث عنه فيه إلا أنه لم يتمكن من العثور عليه. في ذلك الوقت كان القبطان باشا<sup>(1)</sup> إسكندر باشا في غاية الخوف والعلم، ذلك لأنه لم يكن يأذن لأحد بركوب البحر ولو على قارب صغير ذي مجذافين، وكثيرا ما كان يؤذي البحارة بدعوى أنهم من رجال الأمير قورقود. عندما بلغتني أخبار حواره قررت «مبادرة مبدئي»، فشجنت سفيتي بالقمح ثم مضيت بسرعة إلى طرابلس الشام حيث استبدلت القمح بالشعير، ثم ذهبت إلى بروزة PREVI 7 حيث باعت شعيري واشترت بعض الأفراس والعمال. ثم رسوت في جزيرة أياماوري AYAMAVRI المعاملة لبروزة فرأيت سفينة ذات أربعة وعشرين مقعدا راسية في الماء أعجبت بها كثيرا فسألت عن صاحبها فقبل لي بأنها لقبطان تركي يدعى «القبطان فتاح».

(1) قبطان باشا، أو قبودان باشا: القائد العام للقوات البحرية العثمانية

كان القبطان فتاح قد توفي قريبا فأرسل ورثته السفينة إلى هناك لبيعها. لقد أعزمت كثيرا هذه السفينة وكنت مستعدا لدفع أي مبلغ يريد أصحابها، وفي النهاية اتفقت معهم على ست كيسات من الفضة. عندما اشترت تلك السفينة خُيِّل

(1) الكيسة، هكذا وردت في الأصل، وهي تعبير عن وحدة نقدية كان يتم التعامل بها في عصر پيروس، وبالرجوع إلى الدراسات التي تعنى بتيار المعاملات المالية في الدولة العثمانية يتبين أنه خلال القرون 16 كان لمط الكيسة معنى محفظة النقود المفضية، وأما محفظة النقود الذهبية، فكانت تدعى «الصرّة»، وكل منهما كان يستعمل لحساب المبالغ المالية الكبيرة. ولقد اختلف مقدار الكيسة والصرّة باختلاف العصور، فحتى عصر السلطان سليم الأول كانت الكيسة تقدر بثلاثين ألف أتجة أي درهم فضي، أو عشرة آلاف دينار ذهبي. وعندما تأسست دار السكة بالجزائر في أواسط القرن 16 تم صك الدينار الذهبي الذي كان يسمى «السلطاني»، وكانت الكيسة حينئذ تقدر بثلاثين ألف دينار سلطاني، وبعد هذا التاريخ استمر تغير قيمة الكيسة والصرّة إلى أن تم إلغاء التعامل بها سنة 1877.

لمزيد من التفاصيل انظر:



إليّ وكان العالم كله قد صار منكألي. ركبت سفيتي وأخذت بقية القطع فجئت البحر المتوسط طولا وعرضا إلى أن أتيت جزيرة جربة، حيث لقيت أخي عروج هناك. وبينما نحن نمكّر في وجهتنا إذ بدا لنا أن نتوجه إلى تونس وقلنا: «ما دام الموت هو نهاية كل حي فليكن في سبيل الله».

كنت أنا وأخي ويحيى رئيس، ركب كل منا سفينة وأتينا تونس فدخلنا على السلطان وقدمنا له الهدايا ثم قلنا له.

«نريد أن تفضل علينا بمكان نحتمي فيه سفتنا بينما نقوم بالجهاد في سبيل الله وسوف نبيع غنائمنا في أسواق تونس فيستفيد المسلمون من ذلك وتتعش التجارة كما ندفع لخزينة الدولة ثمن ما نحوزه من الغنائم (8/1)».

فأجابهم سلطان تونس قائلا:

«إن ما تقولونه معقول جدا فأهلا وسهلا بكم البلد ببلدكم».



## بارك الله في غزوكم

أذن لنا السلطان بالرّسو في ميباء حلق الوادي فقصينا الشتاء هناك. وعندما حل الربيع ركبنا البحر. بخمس قطع بحرية. كانت سفيتي أسرعها. فبلعنا جزيرة سردينيا SARDUNYA وهناك استولينا على سفينة أحد القراصنة. كان فيها مائة وخمسون أسيرا.

وفي هذه الأثناء بدت لنا في الأفق سفينة كأها جبل كشيّش\* KEŞİŞ DAĞI والعباد بالله. قال لي دراغي الأيمن دلي محمد DELI MEHEMET الذي كان قبطانا لإحدى سفن ومعرف بشجاعته

«سيدي القبطان أرجو أن تأذن لي في الذهاب لاستولي على تلك السفينة»

ولكي آخذ بخاطر دلي محمد رئيس أذنت له بأن يمضي ليستولي عليها. كانت سفينة تبدو صغيرة جدا أمام سفينة

\* جبل كشيّش: جبل مشهور في تركيا، يشرف على مدينة بورصة يعرف اليوم بجبل أولوداغ (Uludağ). يصرب به المثل في العلو. ويعتبر اليوم أحد المنتجعات الشتوية المشهورة في تركيا.

## بدأ الكمار يهابوننا

أمضينا الشتاء في تونس أيضاً، وعندما حل الربيع خرجنا للعزرو. وصلنا خلال ثلاثة عشر يوماً إلى ميساء نابولي NAPOLI بحريّة موروّة فصادفنا مركباً كبيراً متوجّهاً إلى إسبانيا. كان فيه ما بين ثلاثمائة إلى أربعمائة مقاتل رفعوا راياتنا الذهبية وشرعوا في قصفهم. حاولنا سبع مرات الاقتراب من المركب، وفي المرة السابعة تمكنا من محادثته، فجرت معركة كبيرة تمكنا عني إثرها من الاستيلاء عليه. في هذه المعركة فقدنا مائة وخمسين شهيداً وجرح ستة وثمانون من رفاقنا بعد المعركة. تبين لنا أنه كان في السفينة خمسمائة وخمسة وعشرون شخصاً، أسرنا منهم مائة وثلاثاً وثمانين. وأما الآخرون فقد تمّ قتلهم، كان من بين القتلى والى لإحدى المقطعات الكبيرة بإسبانيا وبعد ذلك استوليت على سفينة أخرى ثم رجعنا إلى تونس، حيث تمّت معالجة أخي عروج الذي كان قد جرح في إحدى هذه المعارك.

هذاء وقد كان من بين الغنائم التي حصلنا عليها: سبعون أو ثمانون سقاءً وعشرون بازيا قمياً يهدائها جميع إلى سلطان تونس.

بعد هذه الغزوة شاع أمرنا في كل ممالك الكفر، فانفقوا على القضاء علينا قاتلين:

العدو وكأشها غلاف حمة البندق. أما نحن فقد تعقبنا سميّة دلي محمد، وعندما حاديت السفينة. لم نجد بها أحداً لقدركب القراصنة قواربهم ولاذوا بالفرار عندما رأوا سفناً. صعدن إلى السفينة فوجدناها مشحونة بالقمح سلمتا على دلي محمد وقلنا له

«غزو مبارك»

وفي الصباح التالي استولينا على سفيتين أخريين: إحداهما كانت مشحونة بالعسل والزيتون والحب، وأما الأخرى فقد كانت سفينة جنوية محملة بالحديد.

وصلنا إلى تونس على أصوات المدافع، مثقلين بغنائم كالحبال أخذ جميع العزاة قدر ما يريدون من الغنائم. وقمنا بفرز حصّة السلطان وتصدقنا بهال كثير على الفقراء، فطلب منهم كثيراً من الدعاء



(1) تابعة لجمهورية جنوة التي كانت إحدى الجمهوريات الإيطالية في ذلك العصر.

«لقد ظهر تركيان اسميهما عَرُوج وخير الدين خضر. يجب أن نسحق هاتين الحيتين قبل أن تتحولاً إلى قَيْنَيْن. علينا أن نمحو اسميهما من على وجه الأرض. إننا إذا أتحنا لها الفرصة سوف يسببان لنا متاعب كثيرة»

وهكذا أعدَّ الكفار عشر قطع بحرية من نوع قادرغة\* KADIRGA إعداداً جيداً لإلقاء القبض علينا، لكننا كنا قد ركب البحر قبل وصولهم، ك نريد التوجه إلى جنوة GENEVİZ، إلا أنه بسبب مخالفة الرياح توجهنا إلى سواحل الجزائر فرسونا أمام قلعة تدعى: بجدية.

وأما السفن الإسبانية فإنها عندما لم تعثر علينا في سواحل جنوة، فقد توجهت إلى بجاية. كان الاشتباك معها على الساحل فيه خطورة كبيرة، ولذلك فقد ركبنا البحر بسرعة، ظنبت السفن الكافرة أب فررنا منها فانطلقت خلفنا. وعندما ابتعدنا عن الساحل بمسافة كافية أمرنا أحي عَرُوج بالعودة والاقتراب

\* قادرغة: إحدى السفن الشراعية الحربية التي كانت مستعملة قبل اكتشاف السفن البخارية. تشتمل على 25 مقعداً. كل مجداف يقوم بدفعه 4-5 جدافين. تمتاز بطولها وحجمها. يتكون طاقمها من 35 بحاراً و 196 جدافاً و 100 بحاراً كما تحمل 13 مدفعاً. انظر:

Osmanlı Tarihî Deyimleri ve Terimleri sözlüğü.cil.s.129.

من السفن الكافرة فدهش الكفار لهذه الماورة التي لم يكونوا يوقعونها

جرت معركة كبيرة حيث قمنا خلال ذلك بهجوم خاطف على سفينة القيادة فتمكنا من الامتلاء عليها مع ثلاث دسمن أخرى.

بينما لا ذات السفن الناقية بالقرار نحو بجاية محتمية بقلعتها. أراد أحي عَرُوج أن يهاجم القلعة ليستولي على السفن فأردت منعه بسبب خطورة وضعه لقد كان الأحوط أن نأخذ السفن الأربعة و نرجع بها إلى تونس تاركين السفن الستة الناقية لحاها.





## أربع سفن صارت أربعة عشر

لم يستمع أخي لقولي بل أعطى أوامره بالشروع في الهجوم على قلعة بجاية التي كنت تعجّ بالجنود الإسبان، وفضلا عن ذلك فقد التحق بهم رفاقهم الذين اندفعوا من السفن للاحتواء بأسوار القلعة

شرع أخي في مهاجمة القلعة التي كانت تخطر علينا وأبلا من قذائف المدفعية والقنابل. خلال ذلك فقدنا ستين شهيدا وعددا كبيرا من الخرجي. كنا على وشك الاستيلاء على القلعة، غير أنه في الوقت الذي اشتد فيه لهيب المعركة أصيب أخي بقديفة في ذراعه الأيسر.

عندما رأى الإنسان ذلك فتحو أبواب القلعة وقاموا بمهاجمتنا. حزننا كثيرا لأخي الذي كان قد جرح جراحا بليغة وبسبب حنقي على الإسبان قمت بهجوم عيب عليهم مع ثلاثمائة أو أربعمائة مقاتل من رجالي وأعملنا فيهم السيف، وتمادينا في تعقبهم حتى دفعناهم إلى الاحتباء بأبواب القلعة. في هذا الهجوم قتلنا ثلاثمائة إسباني وأسروا مائة وخمسين منهم.

لم يكن من المناسب المكوث طويلا أمام القلعة. وأما أخي فقد كان قد فقد وعيه من شدة ما كان يعانيه من جراحه. جمعت جنودي وأمرتهم بركوب السفن، بينما استمر الكمار في قصفا.

إلا أنهم لم يتمكنوا من إصابة أي أحد منها بفضل الله وعنايته. وتمكنا على إثر ذلك من العودة إلى تونس بأربعة عشر قطعة بحرية.

قام الجراحون بتطيف جراح أخي عزّوج، إلا أن آلامه كانت تتضاعف من يوم لآخر. فاجتمع الجراحون وقالوا: «إذا لم تُقطع ذراع أخي فإن حاله ستكون أكثر خطورة، وعندئذ لن نكون مسؤولين عن ذلك».

أما أهالي تونس فلأنهم فرحوا كثيرا عندما رأونا قد رجعا بأربعة عشر سفينة بعدما خرجنا في أربع سفن فقط، لكنهم عندما علموا بإصابة أخي عزّوج أجهشوا بالبكاء حزنا عليه فقلت للجراحين: «من يقوم بإنقاذ ذراع عزّوج فإنني سأكافؤه بوزنه ذهباً وأهب له عشرة أسرى يختارهم من أيهم شاء».



## قطع ذراع أخي عروج

اجتمع الخراحون مرة أخرى للتشاور فلم يتوصلوا إلى حل آخر غير قطع ذراع أخي وأذنت لهم بذلك، فقاموا بقطعها ومعالجة جراح أخي. كنت أبكي بحرقه كبيرة فقال لي:

«لماذا تبكي؟ هذا قضاء الله وقدره. إني أحمد الله على أني فقدت ذراعي في الغزو. تكفيني هذه النعمة».

استعاد أخي عاقبته في ذلك الشتاء. وعندما حل الربيع وانتعشت النفوس خرجوا في ثمانية مراكب للغزو فوصلنا إلى سواحل الأندلس حيث كانت المدينة الإسلامية غرناطة قد سقطت قريبا بيد الإسبان.

كان الإسبان يقومون بمطالم كبيرة في حق المسلمين الذين كان الكثير منهم يعبدون الله سرا في مساجد سرية قاموا بساتها تحت الأرض لقد دمر الإسبان وأحرقوا جميع المساجد وصاروا كلما عثروا على مسلم صائم أو قائم إلا وعرضوه وأولاده للعداب والإحراق. خلال ذلك قمنا بحمل عدد كبير من المسلمين في السفن ونقاذهم من أيدي الكفار، ونقلهم إلى أحرار وتونس.

وعلمنا كما في سواحل المرية ELMERIYYE لاحت لنا سعة سهل للكفار، فلحقنا بإحدها واستولينا عليها، وبسبب

مخالفة اتجاه الريح لم يتمكن من إدراك السفن الأخرى كنت السفينة التي استولينا عليها سفينة هولندية محملة بضاعة قد حست من الهدم. ومن هناك توجهت إلى جزيرة مينورقة MINORKA حيث دخلنا إلى خليج صغير. كان قد مضى على خروجنا من تونس حمسون أو ستون يوم.

توعدنا في جزيرة مينورقة فصادف ما يقارب مائتي مقاتل مدحج بالسلاح حاليين على ضفاف الأنهار، كانوا يشوون حروق ويعاقرون الخمر وقد عاب أكثرهم عن وعيه. قتلنا سبعين أو ثمانين كافر منهم واستولينا على خمسة أو ستة قطعان من الأغنام، وأحضر قندهم إليّ فسألتهم عن وجهتهم التي كانوا يقصدونها فقال:

«سيدي لقد علمنا برسوكم في مينورقة وقد توجهت إليكم عشر سفن إسبانية من نوع قاذرة. كان من المقرر أن تقوم بمهاجمتكم من البحر، بينما نقوم نحن بالمحوم عليكم من البر».

لما علمت بذلك قمت بتوثيق الأسرى وتفريقهم على السفن مشى مشى ثم انطلق من مينورقة متجهين إلى جنوة، فاستولينا على أربع مراكب صادفناها في طريقنا. لقد كان من أثر تلك الحملات أن شاع أمرنا في جميع أنحاء مدن الكفار وصرقا أسطورة في بظهم.

أغرنا على جزيرة كورسيكا KORSIKA، ثم توجهت مع

أخي إلى جزيرة ميديلي. في سبع قطع بحرية.

«حت الوطن من الإيمان» مثل عربي صحيح<sup>(1)</sup>. عندما قامنا أهلنا شعرنا بانتعاش قلوبنا وأرواحنا. لقد جاءنا جميع أقاربنا وأصدقائنا يسألون عن أحوالنا، فأقمنا وليمة كبيرة دامت سبعة أيام وسع ليالي أطعمنا خلالها فقراء الجزيرة، وقمنا بتحتين لأطفال، وزوجنا العداري اللاتي لم يكن هن أرواح. ولكي ندخل السرور على قلوبهن أقمنا هن احتمالات كبيرة، ونخططا هن أثوابا جديدة. أدخلنا السرور على قلوب الأرامل والمعجرة والمعاقين. وامتلات جيوب بحارتنا بالذهب حتى صاروا يشترون البضاعة التي سعرها أقبعة واحدة بحمير أفجات، وذلك لكي يتمكن تجار الواحي المعينة من الربح فيعوزوا شركة دعائهم. لقد قام أهالي ميديلي بإكرامنا والاعتناء بنا وخدمتنا بأن كانوا يحملون إلب الطعام والفاكهة راجين منا قبولها.



(1) هذا ليس مثلاً عربياً بل حديث موضوع شائع على ألسنة الناس. نظر: المقصد الحسن للبحاوط السخاوي، ص 183

## حننا للبحر فوق كل حب

كما نريد أن نقضي الشتاء في الجزيرة. وخلال ذلك قمنا بإكرام جميع أقاربنا من مال الغنائم، وخصصنا أحيانا الأكبر إسحاق<sup>(1)</sup> بمقدار كبير من مال وذهب السندقية وحزنا على دعائه المبارك، إلا أنه عندما رأى ذراع أخي عروج المستورة حزن على ذلك حزن شديدا.

أراد أخي عروج ذات مرة أن يتزوج ويستقر في ميديلي إلا أنه سرعان ما تحلى عن هذه الفكرة، لأن حبه للبحر كان يفوق كل حب، بل لم يكن يعدله أي شيء آخر.

وذات صبح قال لنا

«لقد رأيت في الليلة الماضية رؤيا صالحة رأيت ذلك الشيخ ذا اللحية البيضاء الذي بشرني بالنجاة عندما كنت أسيرا في رودس يقول لي: يا عروج توجه إلى العرب، إن الله قد كتب لك هناك كثيرا من الغزو والعز والشرف...»

(1) هو إسحاق رئيس لأح الأكر لخير الدين بربروس. النحوق هم في خرائط، واشترك مع إخوته في عرواتهم. «استشهد في قلعة سيدي راشد بالخرائط سنة 1518 ضد الإنسان



كانت السفن تصل إلى ميديي لأن القباطنة كانوا يشترون الأسرى من هناك لاستخدامهم في الحذف، فقلت ذات يوم لهؤلاء القباطنة.

«لدي ثمانمائة وسبعة وعشرين جذاً زائداً أبيعهم لكم». وعلى هذا النحو بيعت هؤلاء الجذاً للتجار القباطنة العثمانيين، كان بعضهم يقدر بخمسمائة دينار، وبعضهم بثلاثمائة يسماً كان بعضهم أقل من ذلك.

دعوت رسوم الخمارك المتعمقة بالأسرى الذين قمت ببيعهم، وبعثت إلى رؤساء الميناء حقوقهم، كما تبرعت للأوقاف الإسلامية

وهكذا أنفقت نصف ما كسبته من المنقود، وأما ما بقي منها فقد قسمته مع أخي عزوج، لم تكن نحب الاحتفاظ بالمال ولذلك فقد أنفقا جميع ما ربحناه على تجهيز سفنا بشكل جيد، والذي بقي قاسمناه بحارتنا؛ فكان نصيب كل منهم تسعون ديناراً، وأما الرؤساء فقد أصاب كل منهم مائة وخمسة وتسعين ديناراً.

لم يكن الحارة ينفقون على طعامهم وشرابهم من جيوبهم، فقد كانت لكل سفينة مطبخها الخاص، كما كان اللحم يقدم للحارة مرتين في الأسبوع، لأنهم كثيراً ما كانوا ينفقون على طعامهم من مالهم الخاص لأن الطعام الذي يقدم لهم في السفن لم يكن يروقهم كثيراً.

عندما حل الشتاء أدت للبحارة بقضاء ذلك الفصل بين أهلهم ممن كانوا يقيمون قريباً من الأناضول ANADOLU والرومي ROMELI، أما من كان أهله في أماكن بعيدة فقد أمضى الشتاء معنا في ميديي.

في هذا الشتاء طلبت من مصنع بناء السفن بميديي صناعة ثلاث سفن: إحداها ذات خمسة وعشرين جذاً والأخريان ذوا أربعة وعشرين جذاً. وهكذا صار لدينا بحلول الربيع عشرة مراكب بحرية

وبعد أن جهّزنا سفننا تجهيزاً جيداً ركبنا أنا إحدى السفن الجديدة يسماً ركب أخي عزوج في سفينة أخرى.

وعندما اقترب فصل الربيع بدأت أمواج الشباب الشجعان ممن كانت بلعتهم شهرتنا تصل من الأناضول والرومي إلى جزيرة ميديي راجين قبولهم كحارة معنا، فقلنا من توسمنا فيه الشجاعة والإقدام.

قلنا يد أحياناً الأكر إسحاق وودعنا أقاربنا وأحبائنا ثم ركبنا البحر في ساعة مباركة من ذلك الفصل



## الفقراء يتربون طريقنا

في طريقنا استولينا على خمس عشرة أو ست عشرة قطعة بحرية. احتفظنا بالمراكب الجيدة منها، وأما تلك التي كانت سيئة فقد قمنا بإعراقها. كانت خمس سمن من التي غنمناها ثُمَّةً بالقمح واثنان منها محملة بزيت الزيتون، بينما كانت واحدة منها محملة بالبحار، وأما بقية السفن الأخرى فقد كانت مشحونة بأموال وبضائع محتملة. وبيع مجموع الأسرى أربعمائة وتسع وسبعين امرأة وعددا لا يحصى من الرجال.

بعد أن مضى على مغادرتنا لمدينتي تسعة وعشرون يوما دخلنا ميناء خلق الوادي بتونس بسبع سفن فوجدنا الميناء مزدحما بالأهالي الذين جاءوا للتمرح عينا، قمنا بتحتيتهم بإطلاق المدافع في الهواء

لقد كان الأهالي يحثوننا كثيرا، وبلغ من حبهم لنا أنهم كانوا قلقين من عدم عودتنا مرة أخرى إلى تونس خصوصا الفقراء منهم الذين كانوا ينتظرون رجوعنا بنهضة وترقب. قمنا بتوزيع القمح محملا على الفقراء والمحتاجين، وأما بقية البضائع فقد قمنا ببيعها، كما بعنا إلى سلطان تونس حصته التي كانت تتكون من خمسة آلاف دوقية بدقية وجاريتين وأربعة علمان جويين كانت أعمار الجاريتين والغلمان تتراوح بين خمس

عشرة وست عشرة سنة. لقد كانوا في غاية الحال، لو معناهم لكات قيمتهم كبيرة جدا.

أما السلطان فقد أهدى لنا خيولا فارغة محمَّلة تجهيزا جيدا وكتب أنا وأخي عرواح قرسيًا ومضينا إلى قصر السلطان الذي استقبلنا قائلا

«شرفتم مملكتي، ينص الله وجوهكم في الدنيا والآخرة، أنتم أسيادنا»

وعند معادرتنا حضرته كافأ كلاً ما نحلة من الفراء وضع إحداها على كتفي والأخرى على كتف أخي عرواح، كما تفصل بإكرام من كان معنا من البحارة.

أمضينا الشتاء في تونس وعندما حل الربيع خرجنا في ساعة مباركة في اثني عشر مركبًا، فأغرنا على إحدى القلاع بحرية صقلية SICILYA وأسربا ما يقرب من ثلاثمائة أسير قمنا بتوزيعهم على مراكبنا ليقوموا بالحدف، كما استولى دلي محمد رئيس على إحدى السفن التجارية التي كانت راسية في الميناء. كانت السفينة محملة بالسكر، إذ أحصينا ستائة وخمسين روكا من صاديق السكر. أمرت دلي محمد رئيس بأن يأخذ هذه العنائم إلى تونس وفي اليوم التالي استولينا على أربعة مراكب أخرى، اثنان منها كانت محملة بالبحار، بينما كانت إحداها مشحونة بأعمدة شراعية كانت مرسله إلى فرنسا، أما الرابعة فقد وجدناها

ممتلئة بالبارود، والحاصل أنها كانت أربع سفن من أفصل العائم!!

رجعنا إلى تونس بعد ثلاثة وثلاثين يوما، استولينا خلالها على كميات كبيرة من الجوخ، حتى أننا فرشنا بها أرضية السفينة، كان نصيب كل بحار سعة قاطير<sup>(1)</sup> ونصف من السكر واثنتي عشرة لفة من الجوخ ومائة وخمس وعشرين لفة من القماش. كما كانت الأعمدة الشراعية التي عمناهم مصنوعة من أجود أنواع الخشب كانت مئية وطويلة بحيث تصلح أن تستخدم في لسفر الطويلة. قرر إرسال هذه الأعمدة هدية إلى سلطات المعظم سليم خان. كما قمنا باختيار مائتي أسير لإرسالهم مع الأعمدة المذكورة. كان من المقرر أن يتولى محي الدين بيري رئيس<sup>(2)</sup> PIRI REIS أخذها إلى إسطنبول. لقد كان محي الدين

(1) القنطار: وحدة قياس الأوزان يختلف وزنها بحسب المكان والرمز

1 قنطار عثماني يساوي 452 56 كغ. يدعى بالتركية Kantar.

انظر: MEB. Örnekleriyle Türkçe Sözlüğü, c 2, s. 1529.

(2) بيري رئيس بحار وجغرافي تركي. قدم إلى سواحل عرب البحر المتوسط رفقة عمه كمال رئيس لسفحة مسلمي الأندلس، اشتهر بكتابه: «كتاب البحرية» الذي رسم فيه خرائط مفصلة لسواحل وموانئ البلاد المطلة على البحر المتوسط

ابن أخت المرحوم كمال رئيس<sup>(1)</sup>، كان صديقا طريفا عالما عارفا بالآداب السلطانية، غادر بيري رئيس تونس في ساعة مباركة متجها إلى إسطنبول.



(1) كمال رئيس بحار تركي قاد أسطول أعاريه على سواحل إسبانيا بعد سقوط غرناطة بأمر من السلطان بيري الثاني، وذلك بعد ما وجه الأندلسيون رسالة استعانة إلى هذا الأخير. كما كان أول من قام بنقل عدد كبير من مسلمي ويهود الأندلس وتوطينهم في الأناضول



## نلنا دعاء السلطان فصرنا أعزة في الدارين

عادر ييري رئيس تونس في ست قطع بحرية فوصل إلى إسطنبول في اليوم الحادي والعشرين من حروجه رسا في الساحل المقابل لسراي بورنو SERAY BORNU محيا السلطان بإطلاق قذائف المدفعية. استقبل السلطان ييري رئيس وتفصل بقراءة رسالتي بنفسه فشر كثيرا بما قمت به أأ وأخي عرواح من عرواح. بعد قراءة رسالتي رفع يديه الماركتين بالدعاء له ولحارتما:

«اللهم بيض وجهي عبدك عرواح وخير الدين في الدنيا والآخرة، اللهم سد رميتها واخذل أعداءها وانصرها في البر والبحر»

هكذا نلنا دعاء السلطان فلن نغلب بعد اليوم. لقد صرنا أعزة في الدارين. أما رفيقا ييري رئيس فقد لقي حقاوة كبيرة من السلطان الذي أكرمه باثني عشر كيس أفعجة وألسه الخلعة السلطانية بنفسه وتفصل بقول الهدايا التي بعثنا بها إليه والاطلاع عليها بنفسه واحدة واحدة. وبالرغم من أنه حتى الآن لم تنجرأ أية سفينة على الاقتراب من الساحل المحادي للقصر. فإن السلطان المعظم أمر برؤسو سفن ييري رئيس قريبا من القصر أمر ييري رئيس ماكني أمير بحمل الهدايا المرسله إلى

السلطان عي أكتافهم واستعرضهم في طانور منتظم فحرح مائتا سحر في ألبة مرر كشة إلى الساحل في استعراض عسكري أمام السلطان، فكأ سليم خان كلا منهم بحمسين ديناراً ذهبياً، وأمر بتأمين كل ما يلزمهم على حساب الدولة. أما محي الدين رئيس فقد حصص له بيت كبير للإقامة فيه

أمر السلطان بسحب السفن إلى مصنع بناء السفن، فتم دهنها وإصلاح ما عطب منها وتزويدها بما تحتاج إليه من معدات، كما أمر ببناء سفيتين حرييتين ذات سبعة وعشرين مقعدا من نوع قادرعة، كانت إحداها ستهدى إلى من السلطان والثانية إلى أخي عرواح. رُيت مؤخرة السفيتين بطلاء ذهبي، أما طهرها فقد شحن بكميات كبيرة من القذائف التي كنت تلمع لكونها قد خرجت لتوها من المصنع.

كما قام ييري رئيس بزيارة الوزراء وقدم لهم الهدايا التي بعثناها إليهم، وذات يوم استدعى السلطان سليم خان ييري رئيس فدما مثل بين يديه سلمه سيفين قد خلّيت قصنتها بالماس. كانت قيمة كل منها تعادل خراج بلاد الروم، كما سلمه خلعتين سلطائيتين وبشابين ثم قال له:

(1) لعله يريد أن يقول بأنها ثمينة جدا فاستعمل هذا التعبير للدلالة على ذلك من باب المبالغة

«ليركب خير الدين إحدى السفينتين اللتين سلمتهما لك،  
وليركب عزّوج الأخرى وليتخلَّ خير الدين بأحد النيشاتين  
وعزّوج بالآخر. وأما السيفان فليقلد خير الدين أحدهما،  
وليتقلد عزّوج السيف الآخر، وأعلمهما بأننا قد قبلنا هداياهما  
المرسلة إلى مقامنا السامي. استودعكم الله وأسأله أن يديم عليكم  
نصره المؤزّر. ومهما تكن لكم من حاجة فإنه يمكنكم عرضها  
علينا لقصائنها».

أحد يري رئيس الخط الهمايوني "HTT HUMAYUN"،  
وقبله ثلاثاً ووضع على رأسه ثم سلم محبياً في احترام سبع  
مرات، وقتل يد السلطان المباركة ثم ودّعه وخرج في عاية  
السرور والسعادة

ركب يري رئيس إحدى السفينتين اللتين تفصل بينهما  
السلطان سليم حان وأمر بقية السفن الأخرى أن تلحق به.  
ثم سلم على السلطان بعد أن رسا قريبا من سراي بورنو في  
ثمان قطع بحرية، في حين كان السلطان يتفرح على سفنا من

(1) الخط الهمايوني - الأمر الملكي أو لسطاني الذي يصدره إلى رعاياه  
أو رجال دولته. انظر

Abülkadir Yiğit ve diğerleri, Osmanlıca- Türkçe Ansiklopedik,  
Büyük Lügât, İstanbul, 2002, s. 337.

قصر الساحلي ثم عادر يري رئيس إسطنبول متجها إلى تونس.  
في الوقت الذي كان فيه يري رئيس في إسطنبول خرجت  
أما وأحي في عشرة مراكب، كان مقصدا الذهاب إلى مضيق  
سته "الذي يقع في نهاية البحر المتوسط، على أن يمر من هناك  
إلى الأندلس لنقوم بإتقاذه من نقدر عنده من إخواننا في الدين  
في هذه الأثناء وصل وفد من مدينة بجاية الجزائرية حاملا  
رسالة جاء فيها:

«إن كان ثمة مغيث فليكن متكم أيها المجاهدون الأبطال.  
لقد صرنا لا نستطيع أداء الصلاة أو تعليم أطفالنا القرآن الكريم  
لما تلقاه من ظلم الإسبان. فها نحن نضع أمرنا بين أيديكم  
جمعكم الله سبياً لخلاصنا بتسليمه إيانا إليكم، فتمضوا بتشريف  
بلدنا وعجلوا بتخليصنا من هؤلاء الكفار».

في الوقت الذي كان فيه بالتحرك نحو بجاية إذا بييري  
رئيس يدحل السواحل التونسية، فأخذناه بسرعة إلى سفينة،  
وسألناه بلهفة عن أحوال إسطنبول. أما السفينة التي كان يركبها  
ييري رئيس فإنني بمجرد أن رأيته حتى كاد عقلي يطير من  
شدة الإعجاب بها لقد كانت صخمتها وروعها توحيا بأنها

(1) يعني مضيق جبل طارق الذي يفصل بين سواحل المغرب وسواحل  
الأندلس (إسبانيا)

بما تفضل به السلطان علينا، فامتلاً قلبي سروراً بذلك.

وعندما قرأت الخط الهمايوني المارك الذي بعث به السلطان المعظم سليم خان تضاعف سروري، واعرورقت عينايا بالدموع.

قبلت الخط الهمايوني سبع مرات ووضعتة على رأسي وحمدت الله كثيراً على أن جعلني في خدمة سلطان معظم كهذا. وأما أخي عرواح فقد عمره القرح عندما رأى السفينة التي أنعم بها السلطان عليه فدعا له كثيراً على تفضله عليه بهذه السفينة العظيمة.

كان السلطان سليم خان قد أرسل خط همايوني إلى سلطان تونس؛ حملته إليه بنفسه وسلمته له، وبعد أن قبله سبع مرات، وضعه على رأسه ثم فتحه فإذا فيه:

«إلى أمير تونس إذا وصلك كتابي هذا عليك أن تعمل به، واحذر أن تحالعه وإياك أن تقصر في تقديم أي عون لخدمته: عرواح وخير الدين».

وفي احتفال كبير اجتمع أشراف تونس بحضور السلطان، حيث قلّدت بيدي رئيس سيف السلطان سليم خان وألصقني بحلة التي أنعم بها علي. أما المشيخ فقد هجعت ألسنتهم بالدعاء للسلطان سليم خان والشاء عليه.

رأى سلطان تونس ما لقيناه من حماوة السلطان سليم خان، فأدرك بأن السلطان سليم خان بالرغم من أنه قد حرم

أكر السلاطين من الثناء والتقدير إلا أنه قد خصنا برعايته وإكرامه فتغيرت معاملته لنا وقال لي:

«إن طريقك وطريق أخيك عرواح سينتهي إلى القيادة العامة لبحرية الدولة العثمانية، فهنئنا لكم بذلك».

منذ هذه اللحظة تغير موقف السلطان منا، وبدأ بيدي لنا خلاف ما يظن لما كان يجده في نفسه من الحسد، لقد أدرك أننا لم نعد مجرد قراصنة باتسين مجردين من أي حماية، بل قد صرنا في خدمة وحماية السلطان العثماني المعظم وهكذا شرع منذ ذلك الحين في التحفظ منا والابتعاد عما حوفاً من أن يأخذ منه ممكته لحساب السلطان سليم خان.





## هجوم عنيف على سفن الأعداء

في اليوم التالي ركبت أنا وأخي السفينتين اللتين وهما السلطان لنا، كان في كل سفينة ذات سعة وعشرين مقعدا ستة عشر مدفعا أطلقنا في اثنتي عشرة قطعة فاستوليا على سفينة محملة بالشمع على متنها خمسة وعشرون كافرا، يسهم أربعون أسيرا من إخواننا الأندلسيين، قمنا بتحريرهم جميعا وأرسلناهم مع دلي محمد رئيس في سفينة إلى تونس. كتب أحب دلي محمد رئيس الذي كان شابا شجاعا لا يعرف الخوف أبدا، لو قام بمبارزة خمسة عشر أو عشرين بمفرده لانتصر عليهم قدمنا إلى ميناء بجاية الجزائرية في ألفين وثلاثة وثلاثين بحارا وعشرة سفن قدرعة، ومائة وخمسين مدفعا وآلاف الأسرى الذين يقومون بالحذف.

كانت قلعة بجاية في أيدي الكفار الإسبان. اشتبكنا معهم في معركة دامت ثلاث ساعات ونصف، قتل فيها أكثر الكفار. عندما علم أعراب الوادي بانتصارنا في بجاية لحق بنا عشرون ألف رجل منهم لمساعدتنا إلا أنهم لم يكونوا يعرفون فنون القتال جيدا. تحصنت شذمة من الكفار بالقلعة واستمرت في المقاومة تسعة وعشرين يوما. كنا على وشك الاستيلاء على القلعة إلا أن عدم امتلاكنا للمدافع التي تستعمل لقصف الحصون حال



## دون تمكنا من فتح ثغرة كبيرة في القلعة

بلغنا أن قوات إسبانية كبيرة تحركت من جزيرة مينورقة في طريقها إلينا، فتركنا بجاية وانسحبنا إلى جيجل لترصد القوات الإسبانية القادمة من مينورقة. وأحيرا لاحت لنا في الأفق عشرة سفن كبيرة من نوع قادرغة. كانت مشحونة بالأسلحة والمعدات العسكرية، فقال أخي عروج: «هذه نعمة ساقها الله إلينا».

هجمنا على السفن الإسبانية بمن معنا من البحارة مرذدين صيحات التهليل والتكبير، واشتبكنا معها في معركة كبيرة أسفرت عن استيلائنا على السفن العشرة، ولم يبق من اخود الإسبان على قيد الحياة سوى ثمانية وسبعين جنديا أخذناهم أسرى وقيدناهم للعمل في الجذف.

## الحرب مع إسبانيا

شَرْنَا الرايات الصليبية على السفن الإسبانية العشرة وأمرت  
خمسةائة بحار بالكَفُّون فيها واتحها بها نبحر بحاية. كان الكفار  
الإسبان المتحصنون بقلعة بجاية ينتظرون القطع البحرية  
العشرة القادمة من ميورقة لإمدادهم، وعندما رأوا من بعيد  
حسبوا أننا إخوانهم في الدين فرفعوا قبعاتهم ملوَّحين بها في  
الهواء تعبيراً عن سرورهم وهكذا دنوا من القلعة العارقة في  
فرحها الكاذب!

فتح الكفار أبواب القلعة وتدفقوا على قصورهم الساحلية  
لأستقبال السفن التي جاءت لنجدتهم. وفجأة أمرت البحارة  
بإخراج إلى الساحل، وما إن سمع الكفار صيحات التهليل  
حتى اضطرب صغورهم وولَّوا منهزمين فتمكنا من فتح  
القلعة، بينما راح الإسبان يصرخون بعبارة «ماينّا سيثيور»  
طالبين الأمان.

بعد فتح قلعة جاء جميع شيوخ وقواد المناطق المجاورة  
لجاية مبايعين لي، ومن هنا انتصت أنا وأخي فيكَيْن على هذه  
البلاد.

رجعت إلى جيجل لمقابلة أخي عرووح، وعندما لقيته  
قلَّبي من عيني مهتً لي بفتح بجاية التي كانت قلعة في عاية

## الأهمية<sup>(١)</sup>

استولينا في هذه الحملة على ثمانية برميل من البارود  
وعدد لا يحصى من الغنائم. سررنا كثيراً بالبارود بصفة خاصة؛  
لأن الذي كان لدينا منه قد أوشك على النفاد، ولم يعد سلطان  
تونس يزودنا به، بل لاحظنا إعراضه عنا يوماً بعد يوم، فقررنا  
أن نحل مشاكلنا بأنفسنا. لقد بات آت من اللارم علينا أن  
نؤسس لأنفسنا دولة جديدة في غربتنا هذه.

قامت قيامة الكفار في إسبانيا عندما بلغهم فتحنا لقلعة  
بجاية، فغرقوا في بحر من اغموم والأحزان. أما ملك أسبانيا  
كارلوس<sup>(٢)</sup> فقد أصدر أوامره بوجود تخليص بجاية، وإيقاد  
الأسرى من الأتراك في الحال. ومن ناحية أخرى فإن أهلي  
الحرائر رأوا أن الأتراك قادرين على قصم ظهر الإسبان، إضافة

(١) يلاحظ أنه لم يتم فتح بجاية وطرد الإسبان منها بالكامل، إذ لم  
يتحقق ذلك إلا في عصر البيلرباي صالح رئيس سنة 1554،  
والذي يسمهم من كلام خير الدين أنه تم فتح قلعة المدينة فقط.

(٢) كارلوس هكذا كان يعرف في المصادر التركية، واشتهر في المصادر  
العربية باسم شارل الخامس أو شارلوكان ملك أسبانيا وألمانيا  
معصر للسلطان سليمان القانوني. كان أعظم ملوك أوروبا في النصف  
الأول من القرن السادس عشر.

إلى أنهم مقيمون لنعديل ويحشون الله.

عندما كنت مع أخي في مدينة جيجل وصلت وفود عديدة من المدن الجزائرية، كان أهمها وفد مدينة الجزائر التي كانت تمثل مركز البلاد. كان أهالي الجزائر يشكون من ظلم الإسبان، ويرجون تدخلنا لإيقادهم، فخرج أخي عزّوج في خمسمائة بحار متجها إلى مدينة الجزائر بعد أن خلّفني في جيجل.

عندما كان أخي عزّوج رئيس في طريقه لفتح الجزائر، عادت جيجل متجها إلى تونس التي كان سلطانها قد جهر بعداوتنا، غير أنه عندما رأي مقبلا في عشرة مراكب بحرية حشي على نفسه وسلطانه فتظاهر بشائه عليا معتذرا عن تقصيره في حقنا، فقلت له:

«ما متعك من ترويدنا بالبارود؟» أجاب قائلا:

«لم يكن لدي علم بحاجتكم إلى البارود، ولم يخبرني مساعدي بذلك، وقد أمرت بضرب عنقه لأجل ذلك».

أمر السلطان حقيقة بضرب عنق مساعده، لكن ليس لأنه لم يخبره بحاجته إلى البارود، بل لسبب آخر. لم أشأ أن أفصح به بذلك، بل تصهرت بأبي قد انحدرت بقوله. تجوّلت مع السلطان على طهر قرسيب في مدينة تونس، ثم عدت إلى المرسى

كان معي أخي الكبير إسحاق ورئيس ومصلح الدين رئيس وكورد أوغلو رئيس ودلي محمد رئيس وغيرهم من مشهري

البحارة. أعطيت أوامري لرؤساء البحر بالتوجه إلى الغزو في شرق البحر المتوسط ونواحي قبرص والعودة إلى الجزائر، أما أنا فقد رجعت إلى الجزائر برفقة أخي إسحاق.

توجه رؤساء البحر<sup>(1)</sup> إلى الشرق في مسع قطع بحرية وفي طريقهم صادفوا الأسطول العثماني مبحرا بين قبرص ومصر وقد عطلت سفنه مياه البحر فرح البحارة كثيرا بهذه المصادفة، وسارع مصلح الدين رئيس إلى الاقتراب من الأسطول. ثم صعد إلى سمينة القيادة حيث مثل بين يدي قبطان داريا<sup>(2)</sup> جعفر ناي. الذي خاطبه قائلا

«ألا تعلمون أن السلطان موجود في مصر؟ ما الذي منعكم من الاشتراك مع الأسطول الهمايوني<sup>(3)</sup>؟».

(1) تطلق كلمة رئيس على البحارة العسكريين الأتراك عموما سواء كانوا في خدمة الدولة أم كانوا يقومون بغزوات البحر مستقلين يسمى بالتركية «Levent» وقد درج المؤرخون والباحثون في التاريخ العثماني على استعمال هذا الاصطلاح. وسوف نجاريهم في استعماله تمييزا عن غيره من الرتب العسكرية الأخرى

(2) قبطان داريا القائد العام للأسطول العثماني، وهو أعلى رتبة عسكرية في البحرية العثمانية

(3) الأسطول الهمايوني عبارة تفحيم وتعظيم تعني الأسطول العثماني أو لسطاني

كان مصلح الدين رجلاً عاقلاً فأجابه بقوله:

«سيدي القبطان: معاذ الله أن نهمل خدمة السلطان، فنحن كما تعلمون في إقليم آخر ولم يكن لدينا علم بالذي تقولون. لو أنكم أرسلتم كلباً من كلابكم للإبلاغنا بخبركم لمعجلنا المسير إليكم سامعين مطيعين دون تأخير. إن خدمة الدولة شرف عظيم لنا».

أعجب قبطان داريا بمقالة مصلح الدين فهتأه على حسن جوابه فتلا

«لا فُصَّ الله فاك»

تبع مصلح الدين الأسطول الهمايوني في سبع قطع بحرية، ودخل معه ميناء الإسكندرية. في هذه الأثناء كان السلطان سليم معسكراً في القاهرة بعد أن أتم فتح مصر. وما إن بلغه وصول أسطوله إلى الإسكندرية حتى دخل الميناء وأمر بتفتيشه. احتفى السلطان بمصلح الدين وأمدّه بعدد كبير من الجنود ومعدات الحرب، فأخذ مصلح الدين كل ذلك وعاد بها إلى الحرائر.



## انتصار عروج رئيس

دامت رحلة مصلح الدين إلى مصر شهرين كاملين. تصاعف سرور أخي رئيس بعودته بسفنه وما بعثه معه السلطان سليم خان من جنود ومدافع. كنت مقيماً في حيحل أثناء وجود أخي عروج في مدينة الحرائر

كما قد أخصصنا قسماً كبيراً من البلاد لإرادتنا، فشعر الإسبان المتحصنون بالقلاع الساحلية بقلق شديد لذلك، فأعدوا أربعين قطعة بحرية ثم قدموا إلى تونس، فرسوا بقلعة حلق الوادي إلا أنهم لم يجدوا أحداً عيرن. وعندما أدركوا أنهم عاجزون عن مهاجمة انصرفوا عنا وتوجهوا إلى مرسى الحرائر. كانت غايتهم اختكاك أكبر ميناء في مدينة الحرائر من أخي عروج

بات أخي عروج تلك الليلة ساجدا يدعو الله تعالى أن يَهْنَّ عليه بالنصر. وبعد طُلُوع الشمس جمع بحارته. كان لديه عدد كبير من المجاهدين من العرب والبربر والأندلسيين غير أنهم لم يكونوا يعرفون فنون القتال مثل الأتراك، بل كانوا يلوذون بالفرار عندما يتحرج موقعهم. كان عددهم يتراوح بين خمسة وستة آلاف محاهد. قام العدو بإتزان حوالي عشرة آلاف جندي إلى الساحل، كما كان لديه عدد آخر من الجنود على متن سفنه الأربعين.



أمر أحي عروج برفع راياته فوق أبراج المدينة وأعد فرقة عسكرية قوية لسحق العدو. وعندما أرخى الليل سدوله خرج عروج خفية من أحد أبواب قلعة الجزائر في ثلاثة آلاف مجاهد، وقام بعملية انتفاخ حول الحبال<sup>(1)</sup> وعسكر خلفه الإسبان. كانت ليلة عاصفة شديدة الظلام عجل الله فيها بتأييده لأوليائه المجاهدين. أما الإسبان فقد كانوا يعانون الأمرين من هول العاصفة وظلام الليل الخالك، ولم يتمكنوا من معرفة تحرك عروج رئيس الذي فاجأهم بهجوم مباغت، فلم يستطيعوا أن يعرفوا من أين أتوا. فتم القضاء عليهم جميعاً. في هذا الوقت كانت تهب عاصفة شديدة مصاحبة لهطول وابل من البرد في حجم بيض الإوز. بدأ الإسبان يقتلون بعضهم بعضاً من هول الحاجة، ثم لم يلبثوا أن قاموا بئزال جميع من كان في السفن من الخوذة إلى البر، فبلغ عددهم ما بين عشرين وثلاثين ألف جندي، لكنهم لم يكن أحدهم يرى الآخر من شدة الظلام. واصل عروج رئيس القضاء على فرقهم العسكرية. لقد كانت مدحمة عظيمة انتهت هزيمة العدو. وفي آخر الليل حرق من قلعة الجزائر ألف مجاهد آخر، وشرعوا هم أيضاً في إبادة القوات الإسبانية. فتم القضاء على الكفار تماماً وأُخذ الباقون أسرى.

(1) يقصد الحبال المحيطة بمدنة الجزائر

أمر العاري عروج بإحصاء الأسرى فكان عددهم ألفين وسبعائة أسير. أما الشهداء فكان عددهم ثلاثمائة شهيد تم دفنهم في مراسيم رسمية. انتصرت عساكر الإسلام وارتفعت راية الترك واهزمت إسبانيا التي كانت تعتبر أكبر دولة كافرة أمام أحي عروج، ومُرع أنف الملك كارلوس في التراب. سؤد الله وجوه الكافرين، آمين بحرمة سيد المرسلين.

كتب إلي أحي عروج رسالة يشرنى فيها بهذا النصر المبين. وعندهما وصلني كتابه كان معي أخي الكبير إسحاق رئيس، كن نستعد للخروج إلى الجزائر في عشر قطع بحرية لمساعدة أخي عروج، ولما لم تعد ثمة حاجة لذلك خرجنا إلى الغزو، فاستولينا على ست عشرة قطعة من سمن الكهار كانت محملة بالبارود والزصاص والألواح والقطران والزيت والرر والقمح رجعنا إلى جيجل بعد أن مضى على خروجا تسعة وعشرين يوماً، فقامت بتوزيع سفينة من القمح على الفقراء من أموال العباءم.

ثم وصلني كتاب آخر من أخي عروج يأمرني فيه بإلقاء القنص على أحد شيوخ العرب المفاقيين، فخرجت في الحبل في خمسمائة بحار إلى الحبال حيث ألقيت القبض على الشيخ المفاق، وأمرت بصر ب عنقه وعينت شيخاً آخر بدلا عنه.

وبعد أن استرحت بضعة أيام ركت البحر في أكثر من

عشرين سفينة، فوصلنا إلى مياء الجزائر في ساعة مباركة  
اجتمعت فيها بأخي عروّج وإسحاق، فأمصينا وقتاً طويلاً  
تبدلنا فيه أطراف الحديث، وعلى هذا النحو قضينا فصل الشتاء.

حل فصل الربيع، وأزيت الأرض بمختلف أنواع الأهرار،  
فعدرت السفن من مراسيها وانطلقت تداعب مياه البحر.

كانت مدينة تنس إحدى مدن الجزائر يرأسها أحد الأمراء  
العرب. لقد كانت المدينة في وضع لا تحسد عليه من الخلاف  
والزراع، فداق الأهالي من ذلك الأمرين. ولأجل ذلك كان من  
السهل أن يتسلط الإسبان على هذه البلدة. كان أخي الغازي  
عروّج يرغب في صم هذه البلدة إلى نفوذه. في هذه الأثناء أرسل  
ملك إسبانيا كارلوس عشر قطع بحرية متظاهراً برعته في حماية  
أمير مدينة تنس، أما قصده الحقيقي فقد كان يتمثل في النيل من  
المسلمين. هذا وقد كان لسلطان تنس فرقة إسبانية تتولى حمايته،  
إلا أنها كانت تقوم بنهب كل ما يقع تحت يدها من ممتلكات  
الأهالي وتحمله في السفن وترسله إلى إسبانيا.

بقي أخوأي إسحاق وعروّج في الجزائر بينما توجهت أنا  
إلى تنس في عشر سفن فصادفنا أربع سفن إسبانية راسية في  
الميناء وما كادت أعين الإسبان تقع علينا حتى انخلعت قلوبهم  
من شدة اهلح، وتركوا سفنهم وهرعوا إلى القلعة محتمين  
بأسوارها المنيعه. استولينا على سفنهم ومدافعهم وبنادقهم

بعد أن ولوا هاريين لا يلوون على شيء. أما أنا فقد نزلت إلى  
البر في ألف وخمسمائة جندي وعسكرت قبالة القلعة. كنت  
أتوقع مقاومة شديدة، إلا أفي وجدت أبواب القلعة مفتوحة.  
وقد خرج لاستقبالنا بصع مئات من المسلمين مرحبين بنا:

«مرحبا بكم أيها المجاهدون لقد عاد الإسبان القلعة ليلاً  
مع حليفهم أميرنا ربها كانوا أحد عشر ألفاً لقد خرجوا كلهم  
بمن معهم من رجال الأمير. أما من بقي في المدينة فإنهم لا  
يرضون بغيركم وغير أخيكم السلطان عروّج».

ما ين سمعت هذا لخر حتى بعثت حلف الإسبان وحليفهم  
أمير تنس ألقي غاز ليتعقبوا هاريين، فأدركوهم في اليوم التالي،  
وصاحوا بهم:

«إلى أين المضر أيها الملاحدة المارقون؟ ألا تعلمون أنه لا  
خلاص لكم اليوم من أيدينا؟».

بعد تبادل إطلاق النار اشتبك الفريقان بالسيوف، فلم  
يتمكن العدو من تحمل ضربات سيوفنا ويران بآدقنا التي  
جعلتهم يتساقطون كالعصفير. انتهت المعركة بأسر ثلاثمائة  
وخمسين جدياً عن الكفار، أما من بقي منهم فقد حصدهم  
السيوف. بينما فقدنا سبعين أو ثمانين شهيداً جعل الله مقامهم  
في الجنة.

استقبلت الغزاة على مشارف قلعة تنس وهباتهم بالتصر.

واحتسبت الشهداء عند الله ثم أقمتا مدة في تنس. كان نصيب أحدث الغزاة من الغنائم في هذه الغزوة خمسمائة دينار. أما مجموع ما غنمناه فقد كان مائة وخمسين كيلاً<sup>(1)</sup> من القلعل الأسود وخمسة وسبعين كيلاً من القرفة وخمسة وعشرين ألف ذراع من القماش ومثلها من الحرير وأربعمائة كيلاً من العسل وستمائة كيلاً من عسل الشمع وألف لفة من الصوف، بالإضافة إلى عدد كبير من المعدات العسكرية.

جعلت أحد الضباط نائباً على تنس ثم ركبنا البحر في ساعة مباركة في ست عشرة سمينة، فأتيت الجزائر حيث لقيت أخوي عروج وإسحاق، فتعانقنا بحرارة وشوق وهنأني رئيس الغزاة عروج بقوله:

«بارك الله في غزوكم يا أخي».

كان أمير تنس الذي لاذ بالفرار ابن أخ سلطان تلمسان، لم يعتبر بما لقيه متناً بل سُمع يتفوه بهذه العبارة:

(1) في الأصل وردت لفظة «قنطار» أثراً استبداهها بـ «كيل» للتفريق بين هذه الوحدة والقنطار الذي يتم التعامل به اليوم، والذي يعادل 100 كغ، يساوي كذا القنطار العثماني يعادل : 56.452 كغ، لمزيد من التفاصيل انظر : Kamil Kepekcioglu, Osmanlı Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü, Ankara, 2003, s 214.

«هنيئاً لملك إسبانيا فهو سيستقم لي من هؤلاء الأتراك». لقد تبين لنا أن هذا الرجل لم يبق في قلبه ذرة من الإسلام، فقد كان يظن أن الإسبان قادرين على انتزاع الجزائر من أيدينا وجعله سلطاناً عليها، هكذا كان يسبح بخياله في هذا الوهم. ثم علمنا بعد ذلك أن ابن أخ سلطان تلمسان قد استولى على تنس بدعم من الإسبان وبما جمعه حوله من الأعراب، وأن أهالي تنس الذين أنقذناهم من ظلم الإسبان قد رضوه أن يكون أميراً عليهم.

ثارت نائرة أخوي عروج حينما بلغه هذا الخبر، فقرر أن يسير بنفسه إليه، فجمع علماء الجزائر وسألهم مستفتياً:

«أيها السادة: ما حكم الشرع فيمن تملاً مع الكفار الإسبان ويبيع ملك إسبانيا الذي سار لقتل إخواننا في الدين، وقابل نصحنًا بالكنود؟».

فكان جواب العلماء أن: «قتله واجب ودمه هدر وماله مباح». ثم كتبوا هذه الفتوى وسلموها لأخي عروج.



## ضرب عنق الخائن

ودعنا أخي عروج ثم خرج إلى تنس. وعندما رأى أهالي تنس أن عروج قد اقترب من المدينة أدركوا خطورة الأمر فقاموا بتقييد ابن أخي سلطان تلمسان وسلموه إلى عروج رئيس وهم يقولون:

«أنت السلطان ونحن عبيدك الذنب منا والمغفور منك»

وعلى هذا النحو راحوا يتكلمون بمثل هذه العبارات الموافقة. كان أخي عروج رجلاً رقيق القلب، يكره النفاق والتلون. محسناً عفواً عامراً القلب. ولذلك فقد عفا عن أهالي تنس، ودعا أميرهم وقال له مؤبداً:

«مالك أيها السافل! إن ما فعلته لم يجرؤ أحد من قلمك على فعله، ولن أغير اهتماماً بما تشيعه عني من أني قرصان لا هم لي إلا قطع الطريق في عرض البحر أيها الملعون، يا من جعلت نفسك عبداً لسيدك ملك إسبانيا. ألم تعلم أن ملكك هذا قد أعمل السيف في رقاب مئات الآلاف من مسلمي الأندلس!! نحن لسنا قراصنة بل مجاهدون نقاتل في سبيل الله والله الحمد»

ثم أشار على المور إلى الخلال أن اصرب عنق الخائن قبل أن يدعو بعدد من رؤساء العرب للمثول بين يديه ليقول لهم:

«كان عليكم أن تشدوا وثاق هذا اللعين وتبعثوا به إلي عندما جاء إليكم. وما قمتم به بعدما رأيتموني لا يعفيكم من المسؤولية ألم تباعوني سلطاناً عليكم؟ كيف حشتم بأيانكم؟» ثم أمر بصرب أعناقهم أيضاً

عندما رأى التنسيون ذلك أدركوا أن الأمر في عداية الخطورة، فحلفوا جميعاً بيمين الولاء لعروج رئيس وعاهدوه على أنهم لا يرضون بعيره سلطان عليهم

كان أخي عروج يدرك أن تلمسان هي مصدر جميع الفتن، فقد كانت مدينة كبيرة تقع في أقصى غرب الجزائر على حدود فاس، كما كانت تحكم من طرف أسرة حاكمة مد أمد بعيد<sup>(1)</sup>.



(1) يعني بها الأسرة الأريانية التي أسسها يغمراسن ودام حكمها حوالي 300 سنة، قبل أن يقضي عليها الليبرياني صالح رئيس سنة 1555 بعد أن بلغت درجة متقدمة في الفساد وأصبحت الدولة في يد الإسبان يوحثون سياساتها كيف يشاءون.



## استشهاد عروج رئيس

كان سلطان تلمسان ملكا بائسا خالصا لكفار إسبانيا، أما الأهالي فقد كانوا يعانون من ظلم الإسبان، ومن ظلم سلطانهم أيضا. ومنذ مدة طويلة جاء التلمسانيون إلى الجزائر متوسلين إلى أخي عروج أن يأخذهم حقهم من ظلامهم. أما أخي فقد كان عارما على الاستيلاء على تلمسان لكنها كانت بعيدة جدا على أطراف فاس، كما أنها لم تكن بلدة ساحلية يمكن الوصول إليها بواسطة السفن، إضافة إلى ذلك أن السلطان كان له جيش كبير مكون من العرب والإسبان. لقد كانت تلمسان أكبر بلد في الجزائر وفتحها في غاية الصعوبة، وكان معلوما أنه ما لم تفتح تلمسان فإن الجزائر لن تعرف الاستقرار.

في هذه الأثناء ثار أهالي تلمسان فمر السلطان وأرسلوا وفدا إلى أخي عروج يبايعونه سلطانا عليهم. سر أخي كثيرا لإعلان دخولهم في ولايته دون قتال.

أحدثت دعوة أهالي تلمسان لعروج ليكون سلطانا عليهم فرعا كبيرا في إسبانيا. كان القائد الإسباني الأكبر في إفريقيا مقبلا في قلعة وهران التي كان بها أكبر ميناء في غرب الجزائر، كما أنه يقع في مقاس إسبانيا، إضافة إلى أنها كانت بها قلعة حصينة يحميها آلاف الجنود. في هذا الوقت كانت تلمسان خاضعة

لتسلط ونفوذ الإسبان المتحصنين بوهران. وعندما صار أخي عروج حاكما لتلمسان أمر بقطع جميع العلاقات مع وهران. ومن جهة ثانية فإن القائد الإسباني كان له عدد كبير من الجنود إلا أنه طلب المدد من إسبانيا

قرر أخي عروج أن يقضي الشتاء في تلمسان. كان معه أربعة آلاف جندي إلا أنه لم يقل أن تترك قلعة الجرائر التي فتحت حديثا خالية من الجنود طيلة فصل الشتاء. ذلك لأن فقدان مدينة الجرائر سوف يؤدي في النهاية إلى فقدان جميع البلاد، ولذلك لم يحتفظ معه سوى ألف جندي في تلمسان. كان أخي عروج يريد أن يسير من تلمسان إلى وهران عندما يحل الربيع. وفي الوقت الذي كان فيه معسكرا في تلمسان كنت أنا في الجرائر، فأرسل إليّ مائة وخمسين حملا من النقود الفضية مع ثلاثة آلاف جندي.

لم يكن الخطر الإسباني وحده الذي يهدد أخي عروج في تلمسان فحسب؛ بل كان معرضا لخطر السلطان اغارب من المدينة، والذي جمع حوله عددا كبيرا من الأوباش الذين تقاطروا عليه لأجل الإغارة والهب. ثم راحوا يتحينون الفرصة التي تمكنهم من الانقضاض على أخي.

ومن ناحية أخرى كتب السلطان إلى القائد الكافر القابع في وهران خطبا يستحثه فيه أن يمدّه بما يحتاج إليه من جنود

وعتاد قتالا له:

«لقد وقعت في أيدي القراصنة الأتراك ولم أتمكن من استخلاص أموالي من أيديهم، فأين شوكة وعظمة ملككم؟ هل يُعقل أنكم صرتم لا تستطيعون أن تخرجوا رؤوسكم خوفاً من حفنة من القراصنة؟».

أرسل القائد الإسباني بوهران عشرين ألف دينار إلى سلطان تلمسان وأعلمه بأنه يقوم بإعداد جيش كبير. كان من المقرر أن يخرج هذا القائد بنفسه عندما يحل الربيع من وهران على رأس الجيش (العربي-الإسباني) ويسير به إلى أخي عروج في تلمسان. أما سلطان تلمسان فقد جمع حوله عشرين ألفاً من البربر مقدما لهم مختلف أنواع الوعود والإغراءات، ثم التحقت به قوات أخرى من وهران مكونة من عشرة آلاف جندي. فتوجهت هذه القوات المكونة من ثلاثين ألف جندي بقيادة قائد حامية وهران الذي كان كلياً في غاية الصلف والغرور!!

أدرك أخي عروج استحالة مقاومة هذه القوات في المصاء المفتوح، فأمر بإخلاء المدينة ثم تحصن بالقلعة، ودخل الكهف مدينة تلمسان فقاموا بفضائح لا يصدقها العقل، ثم صربوا إحصار على القلعة.

كسب في مدينة الجزائر، وقد علمت أن الأوضاع في تلمسان ترداد سوءاً فأعددت قوة من ألف جندي تركي وألفي فارس

عربي وجعلتها تحت إمرة أخي إسحاق رئيس، وظلت منه أن يعجل بالسير إلى عروج ليتمكن من إنجاده، فخرج أخي إسحاق على رأس تلك القوة يرافقه وكيله ومساعدته إسكندر رئيس.

عندما علم عروج أن إسحاق رئيس قد خرج لنصرته في قتال الإنسان حرج من القلعة لتوحيد قواتها، فسقطت تلمسان في يد السلطان، واجتمعت قوات عروج بقوات إسحاق، وشرع أخي عروج يفكر في وسيلة تمكنه من استعادة تلمسان.

كان سلطان تلمسان آخر ملك في أسرة حكمت المدينة منذ مئات السنين، بل استطاعت في بعض الفترات أن تبسط نفوذها على كل الجزائر، هذه الاعتبارات لم يكن أخي عروج يرغب في حرمان هذه الأسرة من سلطانها وتاجها، بل كان يريد أن تتحلى عن تحالفها مع الإنسان، وأن ترضى بحضوعها لسلطان العلي، فإن لم تقبل بهذين الشرطين فإننا سيكون مصيرنا لإزالتها من الوجود.

عاد أخي إلى تلمسان في ألفي جندي، فتصدى له أكثر من عشرة آلاف جندي من الإسبان والعرب. اشتكت القوات في معركة عقيمة دامت ثلاث ساعات ونصف، انصبت فيها السيوف بالدماء وأسفرت المعركة عن مقتل أكثر الكفار، ولم يحسب منهم سوى ثلاثمائة أو أربعمائة سيقوا أسرى إلى الجزائر.

أرسل ملك إسبانيا كارلوس فرماناً إلى واليه في وهران

قل له فيه. «إذا كنت تريد أن تحتفظ برأسك فعليك أن تقضي على عروج رئيس وجميع من معه من الأتراك. يجب أن ترسل إلي عروج حيا إلى إسبانيا وأنا أعرف القتلة التي أذيقه إياها».

بناء على هذا فرمان سار حاكم وهران في ثلاثين أو أربعين ألفا إلى أخي عروج، ووقعت بينهما معركة كبيرة دامت ثلاثة أشهر، إلا أن أخي لم يستسلم لهم، فجمع الحاكم قواده وقال لهم:

«إن هؤلاء الأتراك قوم في غاية العناد لا يرصون بالاستسلام حتى ولو هلكوا جميعا. إلى متى نظل ننتظر تحت أسوار هذه القلعة؟ لنرسل إليهم رسولا نعرض عليهم أن يأخذوا أسلحتهم ويدعوا لنا القلعة، فإنهم سيقبلون بذلك إذا نفذت مؤونتهم، أما إن لم تنفذ فإنهم لن يستسلموا إلى أن يهلك آخر رجل فيهم».

في الصباح التالي مثل الرسول الإسباني بين يدي عروج، فقال أخي لمن معه من الجنود بعد انتهاء المقاتلة:

«ماذا تقولون أيها الأبناء، فقد استمعتم إلى الرسول؟».

أجاب الجنود قائلين:

«بكل تأكيد الحياة أفضل من الموت، لنخرج إلى الجزائر ثم نعود بعد ذلك لاسترجاع القلعة من جديد، هذا رأينا لكن الأمر يرجع إليك، فأنت أعرف منا بذلك».

رضي عروج بتسليم القلعة، فسر الكفار لذلك سرورا

عطيا، لأنهم لم يكن قصدهم ما تم التفاوض بشأنه، بل كانوا يهدفون إلى القضاء على عروج ومن معه عند خروجهم من القلعة، ولم تكن لهم أدنى بية لوفاء بما تعهدوا به، فملك كارلوس لو علم أنهم قد تركوا الأتراك بمصون لحالهم لأمر بضرب عنق والي وهران.

خرج عروج من القلعة بمن معه من الجنود الذين كان كثير منهم إما جريح، وإما منهكا من شدة الجوع وعدم النوم لأيام طويلة، إضافة إلى مفاد ما بأيديهم من سلاح ودخيرة، لكنهم ما كادوا يقطعون مسافة قصيرة حتى أدركتهم فرقة إسبانية مكونة من خمسة عشر إلى عشرين ألف جندي، فقال لهم قائد الفرقة:

«سلموا أسلحتكم ألا يكفي أنكم تمضون أحياء سالمين؟».

فأجابه عروج:

«الموت أفضل من تسليم السلاح، ما الموت حتى نخشاه؟ إن المرء يموت مرة واحدة لكن اسمه هو الذي يبقى خالدا!!!».

بدأت معركة يائسة، وشرع الجنود الأتراك في مدافع الكفار، كان أخي يقاتل كل من وصل إليه من الكفار، لكن في كل صولة كان يسقط عدد آخر من الشهداء، فالأتراك لم يكن عددهم يزيد عن ثلاثمائة وأربعين جنديا فقط. وصل أخي ومن معه إلى النهر وهم أن يلقي بنفسه فيه، وعبر نصف الأتراك النهر إلا أن الإسبان

تمكنوا من إدراكهم. لم يتحمل أخي صرحات جنوده الذين كانوا يستغيثون به، فقد كان يحب الولد لولده، ولم يجد بدا من الرجوع إليهم.

كان الحزم يقتضي أن ينحدر بمن معه من الجود إلى الجزائر، ثم يعود بعد أن يستجمع قواته لينتقم لإخوانه، لكن البحارة الأتراك كانوا يدعون عروج رئيس: «أبا» فهل يمكن لأب أن يفرّ تاركاً أولاده تحت ضربات السيوف؟.

عاد عروج إلى الحسر وألقى بنفسه في صفوف الإسبان صارنا بسيفه كل من لقيه، إلا أن البحارة لم تبق لهم قدرة على القتال، بل بلغ بهم الإنهاك أن أحدهم لم يعد قادراً عن حمل السيف كان ذلك في يوم شديد الحر تشققت فيه شعاهم من شدة العطش.

قتل أخي تقريباً مائة إسباني قبل أن يسقط شهيداً، ثم قطعوا رأسه المبارك وبعثوا به إلى الملك كارلوس. أما أخي الكبير إسحاق فكان قد استشهد قبله ببضعة أشهر في قعدة القلاع كنا أربعة إخوة، شهدت استشهاد ثلاثة منهم ما أعظم حكمة الله تعالى! فإنا الوحيد الذي لم تُهدر لي الشهادة، مما يعني أن إخوتي الثلاثة أفصل مني عند الله. جعل الله مقامهم جميعاً في الجنة، آمين بحرمة سيد المرسلين ﷺ.

عندما وصل خبر استشهاد أخي إلى الجزائر قررت أن أعيش

لعاية واحدة هي المصي في نفس الطريق الذي سار فيه أخي، تدت العاية التي كانت تتمثل في التصييق على الكمار في إفريقيا والبحر الأبيض المتوسط، فما قيمة الحياة بعد مقتل أخي؟

لم يكن الوقت وقت إظهار الخور والضعف بل لم يكن لنا وقت للسكاء؛ فحن في إفريقيا لسوا سوى حفنة من الأتراك، يمكن القضاء علينا في رمشة عين. أخذت العديد من الاحتياطات والتدابير، لكن العدو لم يجد قوة تمككه من القدوم إلى الجزائر.

لقد قضيت ذلك الشتاء في الاستعداد، ولم أكن أعطي نفسي لحظة فراغ لكي لا أجد وقت للتفكير في أخي. أم في الليل فقد كان يترأى لي في منامي، فكنت أستيقظ والحرر يملأ قلبي. كنت أستعرق في العمل لكي ألهي نفسي عن ذلك، فقامت بتصليح وتجديد جميع سفني ومدافعي ومعداتي.

كل الإسبان يقولون.

«الشكر لعيسى فقد استرحنا من البلاء الأكبر، والآن يجب أن نتخلص بسرعة من البلاء الأصغر، قبل أن يتحول الشعبان إلى تينين».

حامي رسول من الملك كارلوس مدت إسبانيا ليقول لي: «لقد مات أخوك وقتل أكثر حوده فكُسر جناحك، من تحسب نفسك حتى تقف في وجه أقوى ملك مسيحي بدون أخيك؟ ماذا يمكنك أن تفعل؟ خذ سفنك ورجالك واخرج



من الجزائر فورا، وإياك أن تطأ قدماك أرض إفريقيا مرة أخرى، إن هذا آخر إنذار أوجهه إليك، سوف أملأ البحر بالسفن وأعود إلى الجزائر قريبا، فإذا تمكنت منك هناك، فلتعلم بأن عاقبتك ستكون وخيمة».

كنت سلطان على الجزائر، وفي الوقت ذاته كنت عبدا بسيطا لدى آل عثمان بمنصب بايلرباي الجزائر، إلا أنني كنت أعرف في أوروبا باسم «ملك الجزائر». وعندما خاطبني ملك إسبانيا بهذه الاستحفاف كان من اللازم إيقافه عند حده، ولذلك كتبت له خطابا في غاية الشدة وأرسلته إليه.

عندما استلم ردي عليه أرسل أساطيل سدت الأفق، اشترك فيها ملوك نابولي وصقلية وألمانيا وهولندا وبلجيكا الذين كانوا تابعين لكارلوس. فرست سفنهم قبالة ساحل الجزائر حيث قاموا بإزالة قواتهم إلى البر.

كنت قد استعددت جيدا لعصل الشتاء؛ إذ أتي توقعت رد فعله، ولذلك فإنهم ما إن أنزلوا قواتهم حتى قاما بإعمال السيف في رقاب عدد كبير منهم، بينما استسلم سبعمائة إلى ثمانمائة كافر من أصل عشرين ألف، وأما الباقون فقد لاذوا بالفرار إلى سفنهم؛ بينما عاد ملوك كارلوس وقادته يجرّون أديال المريمة يعد أن تمرّغت أنوفهم في تراب الجزائر.

كان من أثر هذه المعركة أن عظم شأن الأتراك في إفريقيا

وشاع أمرنا في كل أنحاء أوروبا.

كان في الجزائر ثلاثة عشر ألف أسير، منهم أربعة وعشرون من كبار القباطنة يعرفون عند الإفرنج باسم «أميرال»، وكان صطهم أمرا في غاية الصعوبة ففي إحدى المرات كسروا قيودهم وحاولوا الفرار ولم يتمكن من اعتقالهم وإعادة صطهم إلا بعد معركة كبيرة انتهت بمقتل ثلاثة منهم.

أمرت بأن تضرب النقود وتقرأ الخطبة باسم السلطان سليم خان، فقد كان مقصدي أن لا تضرب النقود ولا تقرأ الخطبة باسم أي سلطان آخر غير السلطان المعظم سليم خان.

في هذا الوقت كان سلطان المغرب يعتبر أكبر ملوك العرب في إفريقيا. كنت أعتقد بأنه ما لم يتم إحصاع سلطان المغرب فإنه من المستحيل سيطر الأتراك على إفريقيا، ودأت يوم طلبت حصور عدد من أمراء العرب إلى الجزائر وخاطبتهم قائلا.

«إن السلطان المعظم سليم خان الآن هو خليفة رسول الله ﷺ فكيف تسنى لكم أن تتركوا خليفة المسلمين، وسلطان العالم، وتقرؤن الخطبة وتضربون النقود باسم سلطان المغرب...؟!»

إن مستقبلكم ومستقبل بلادكم مرهون بضرب السكة باسم السلطان المعظم، والويل لكم إن خالقتهم وعصيتهم...».

أوفدت حاجي حسين آغا الذي كان أوثق رحلي إلى سيدي السلطان سليم خان، وبعد واحد وعشرين يوما من رحلة بحرية

وصل الآغا إلى لؤلؤة العالم مدينة إسطنبول، فاستقده السلطان في قصره الساحلي، ووضع حسين آغا بين يدي السلطان الهدايا المتواضعة التي قمت بإتحافه بها، كانت الهدايا يحملها عشرون غلاماً إمرنجياً، فتكرم السلطان بقبورها وأندى إعجابه بها تلطفاً وتكرماً مه.

أليس السلطان الآغا الخُلعة السلطانية، وأمر بإكرام قباطتي وإنزاهم بدور الضيافة الأميرية. وبعد زيارة الآغا للسلطان قام بزيارة نقية أركان الدولة وقدم لهم الهدايا المتواضعة التي بعثها إليهم

مكث الآغا في مدينة عرش العالم إسطنبول واحداً وأربعين يوماً قصداً قباطتي في أكل وهو وصفاء، وعندما أزلت ساعة رحيلهم أمر السلطان أن تمر السفن الجزائرية قريباً من قصره الساحلي لكي يتفرح عليها، فقامت السفن بالاستعراض بين يديه، وهي تطلق قذائفها تحية له. وقبل مغادرته لإسطنبول قام الآغا بزيارة وداع للسلطان فلما دخل عليه قتل الأرض بين يديه سبع مرات. وفي هذه الزيارة سلمه السلطان فرماناً كان قد كتبه بيده، ورد فيه أمر تعييني بيلربايا على الجزائر، ثم سلمه سيماً مَرَصَّعاً وخُلعة مُذهَّبة وراية الإمارة، وقال له:

«اسمع أيها الرئيس؛ سلم هذا السيف لخير الدين باشا ليتقلده بعزة وشرف، وليس خلعتي السلطانية، ولتكن رايتي

دائماً معه لا تفارقه، دعواتي لكم أن يتولاكم الله بنصره وأن يُبَيِّضَ وحوه جميع حذمي المجاهدين بالجزائر في الدارين، آمين بحرمة سيد المرسلين ﷺ.

عندما عادر حسين آغا إسطنبول، أرسى بسفنه في ميناء قورون KORON الواقع جنوب لمورة MORA. كان بالميناء ثمان قطع بحرية تابعة للبندقية، وعدد لا يحصى من السفن التركية. فقام حسين آغا بزيارة مجاملة لأmirال السفن البندقية، وقال له:

«لقد صارت الجزائر تابعة للسلطان سليم، وسيدي خير الدين باشا بيلربايا عثمانياً عليها، كما أن أسطولنا صار قطعة من الأسطول العثماني، ولذلك فإننا سوف نتحرك وفق الأوامر التي تأتيها من إسطنبول، فإذا كنتم حلفاء لسلطاننا فلا خوف عليكم من سفن الجزائر، أما إذا كنتم أعداء له فنحن سوف نصيق عليكم البحر».

وصل حسين آغا إلى الجزائر في اليوم الثامن لمغادرته لقورون، وهكذا تكون رحلته من إسطنبول إلى الجزائر دامت ستة عشر يوماً.

دعوت على الصور حسين آغا ومن معه من القباطية الذين عادوا من إسطنبول، فلما مثل بين يدي استلمت منه هدايا السلطان بكل تعظيم وتبجيل، فقشَّتها ووضعتها على رأسي

وتقلدت السيف وارتديت الخلعة السدطانية ونصبت الراية الأميرية في موضع مرتفع على مقربة مني. شعرت سرور عارم يعمرني، لي يتمكن الإسبان من إزعاجي بعد اليوم، لأن السدطان الكبير سليم خان يسدي من ورائي، فكل ما أطلبه منه لن يتردد في إجابتي بكرمه وعنايته.

في الليل أقمت احتفالا كبيرا وكافأت حسين آغا على حسن سفارته وأدائه لمهمته على أكمل وجه بتعيينه في منصب كبير بالخرائر.

لم يكن ثمة شك في أن أكبر أعدائهم هم كفار إسبانيا كما في حالة حرب مع أهم كفرة أخرى كالحسويين، إلا أننا منذ استقرارنا بالخرائر كنا مضطرين إلى الاشتغال بالأمراء المحليين وأشباههم في الجزائر وتونس والمغرب الذين كانوا مستائين من وجودنا، فالمغرب كان يحكمه سلطان ينتمي إلى أسرة ملكية عريقة إلا أنها فقدت قوتها واستقرارها في الفترة الأخيرة بسبب الحروب الداخلية ولم يكن في شمال إفريقيا دولة أخرى ذات أهمية غير مملكة المغرب. أما تونس وتلمسان اللتان كان يحكمهما الحفصيون وسو عبد الوادي فلم يعلما أهمية على الإطلاق.

شرع ملوك وأمراء تونس وتلمسان في التحالف مع كفار إسبانيا وحبث المؤمرات صديدا سرا وعلاية. لقد كانوا يعلمون أننا سوف نزيحهم عند أول فرصة تتاح لنا، لماذا؟ سوف أوضح

ذلك.

عندما قدمنا من شرق البحر المتوسط إلى غربه برلنا تونس باتفاق مع سبطائها الحفصي وبفضلنا استغنى التونسيون وازدهرت المدن التونسية بعدما كانت خرابا، فصار أهل تونس يعيشون في نبوحة من العيم. وبفضلنا أيضا تخصص سلطان تونس من تسلط الإسبان والجنويين، وامتثلت خزنته بالأموال نتيحة للحراخ الذي كنا ندفعه له. لقد كنا سعداء به، والله يشهد أننا لم يكن لنا مطمع لا في مملكته ولا في أمواله. وإلا فلو كنا نريد ذلك فقد أتاحت لنا فرص كثيرة كان بإمكاننا أن نقضي عليه فيها لكننا لم نفعل.

في هذه الظروف فتحنا الجزائر وصارت لنا دولة أكبر من تونس ودخلت في حرب لا هوادة فيها مع أكبر دولة مسيحية. وبمقتضى الإسلام كان على سلطان تونس أن يساعدنا في حربنا هذه إلا أنه كان متوجسا منا قبل أن ندخل في حماية العثمانيين، وقبل أن نعلن تبعيتنا للسلطان سليم خان.

نحن نعرف بأن آل عثمان أسرة حاكمة لدولة عالمية، وأن سليم خان فتح خلال بضع سنين ممالك هي أكبر من تونس بمائة مرة. لقد كان سلطان تونس يظن بأن سلطاننا المعظم سليم خان بطمع في مملكته الفقيرة، وتجاهل بأن بايلربايات سلطاننا يمكن أن أراضي أكثر خصوبة من تونس، وألوية عسكرية أكبر من تلك

التي يملكها. فأبى بايلرباي سليم خان انتصرت على ملك إسبانيا الذي كان يحكم نصف أوروبا. وهكذا زادت الهوة بيننا وبين سلطان تونس.

إن هذا السلطان الذي لم يكن قادرا على مواجهة بمفرده، ولذلك كان يستعين بالإسبان تارة، ويجرّض الأمراء المحليين صدي تارة أخرى، وكان على رأس المستجيبين لتحريضه سلطان تلمسان المعزول عن عرش الزيانيين لقد كان هذا السلطان تابع لي، إلا أنه لم يكن يتردد في الاتصال بالإسبان والتحالف معهم سرا، وقد وقعت في يدي الرسالة التي بعث بها سلطان تونس إلى سلطان تلمسان، وجاء في هذه الرسالة ما ملخصه.

«إن هذا المدعو خير الدين قوي جدا، بل هو أشد بلاء من أخيه عزوج. ها هو الآن قد استند إلى السلطان سليم خان، ولذلك فلا حد لغروره. لقد وضع في ذهنه التطلع لدولة عالمية تشمل حتى إسبانيا إن السلطان سليم يظن أن خير الدين رجل دولة حقا، فجعله بايلربايا وباشا، وقلده السيف المرصع والخلة والسحق السلطاني، وسمح له أن يجمع من الأناضول ما يحتاج إليه من الرجال والسلاح وغير ذلك من التجهيزات العسكرية. الأحوط لنا هو أن نكون معايدا واحدة، فلا ندع أي تركي في إفريقيا، فهم خلال عشر سنوات من دخولهم شمال إفريقيا صاروا أسيادا علينا»

## لم يسمع أن أحدا انتزع بلدا من آل عثمان

الأمير كله الله يعز من يشاء ويدل من يشاء. لقد كان سلطان تونس عافلا عن هذا الأمر الدقيق، وبسبب أخطائه وخطاياها لكثيرة أذله الله. الآن الحرائر تحت سلطتي ولا يمكن لأي قدرة بشرية أن تنتزعها مني؛ لأن هذا البلد ليس ملكا لي بل ملك لسلطاننا المعظم سليم خان. وحتى اليوم لم يسمع أحد بأن بلدا تم انتزاعه من آل عثمان. هذه هي الحقيقة التي يجب الإقرار بها، وكل من أنكرها فإنه إما يحبي على نفسه ويلقي بها في مهاوي الهلاك

إن أهالي الجرائر يحبونا وهم يعرفون جيدا قيمة النعمة التي يعيشون في كنفها منذ أن حلت ببلدهم. فقد استطعنا أن نوحّد إمارات وقبائل هذا البلد الكبير، وازدهرت التجارة مرات كثيرة، وأمن المسدّمون من ظلم الإسبان، فصاروا أحرارا يسرون مرفوعي الرؤوس، كل ذلك لأنهم تابعون لأكثر سلاطين الدنيا.

ومع هذا فقد استجابت بعض القبائل لتحريض سلطان تونس، فأرسلت إليها قوة مكونة من ستة آلاف راجل وستة آلاف فارس، فتم تأديب هذه القبائل وجعلها عرة لغيرها. أما سلطان تلمسان فقد بدأ يتململ بالاتفاق مع سلطان المغرب.



في هذا الوقت كان أهالي تلمسان قد ضاقوا ذرعاً بالنزاع على العرش بين أفراد البيت الزياني. أما الإسبان فقد كانوا يتفرحون في نشوة على ما يجري في تلمسان

وفي إحدى الأيام وصل إلى الجزائر أحد أمراء بني زيان طالبا مساعدته ضد أخيه الكبير فأرسلت معه قوة مكونة من ثلاثة آلاف فارس، وألف راجل إلى تلمسان. لقد كان سبب إرسالي هذه القوة هو كون حواسيسي قد أعلموني بأن سلطانها مولاي عبد الله بدأ يشير اليأس علينا ويتكلم عنا بسوء. إن هذا السلطان الذي ألقناه من ظلم الإسبان يستحق أن يعاقب على نكرانه لتجميل وإبداء صفحة العداوة لنا. وهكذا فإنه ما إن علم بوصول قواتنا حتى لاذ بالفرار إلى وهران مستغنيا بالإسبان.



نموذج من المعارك البرية للدولة العثمانية ق 16

## الاستيلاء على تلمسان

تحلى أعيان تلمسان عن سلطانهم معلنين براءتهم منه قائلين:

«لقد وصل أخو السلطان، الأمير مسعود بقوات وافرة برسلة من قبل خير الدين، هيا افعل ما بدا لك وانتظر في شأن نفسك، فالأمر لا يخصنا»

أدرك السلطان أن عاقبته سوف تكون وخيمة فلم يكن له بُدّ من الفرار إلى نواحي وهران لاجئا عند الإسبان.

أما الأمير مسعود فقد حقق انتصارا باردا لم يرق فيه قطرة دم. وبفصلنا دخل تلمسان وجلس على عرشها، فأكثر من الدعاء لي ولعساكري التي خرجت معه. كان الحزم يقضي بأن لا تثق فيه ولا نطمئن إليه بعد أن بلغ مراده وحقق غايته.

كافأ السلطان عساكري، فأعطى كل غازي منهم خمسة وعشرين دينارا ذهبيا، وكافأ كل رجل من العرب الذين تطوعوا للقتال معه عشرة دنانير ذهبية. أما أنا فقد بعث إليّ بخمسين ألف دينار قيمة الصريفة السنوية، بالإضافة إلى عدد كبير من الهدايا القيمة تعبيرا عن امتنانه. أرسلت الذهب إلى خربة الإمارة، وقمت بتوزيع أكثر الهدايا على رؤساء البحر، واحتفظت ببعضها في قصري، ثم كتبت خطابا إلى السلطان مسعود قلت

فيه

«الآن بفضل سلطاننا جلست على عرش أجدادك، فاحذر بما كان سببا في حرمان أخيك من عرشه، وإياك وظلم المسلمين، ولا تحالف أوامري قيد أنملة، ولا تتأخر عن دفع الخراج السنوي يوما واحدا ولا أسمع عنك أنك أقمت أي علاقة بالإسبان، فهم سوف يقضون عليك عندما يتمكنون منك. وتذكر بأن أخويك الكبيرين في وهران لاجئين عند الإسبان. وإذا كنت لا تريد أن ترى أحدا منهما جالسا على عرشك فخذ ما يلزم من تدابير لحماية نفسك وعرشك».

إلا أن مسعودا ما إن جلس على العرش حتى شرع في ظلم الناس ونهب أموالهم بغير حق كما عهد ذلك من آباءه الذين سبقوه إلى العرش، وعلمت أنه عندما قرأ كتابي مزقة إربا إربا. لقد كان غافلا عما ينتظره من عواقب بفعلة تلك، فسمع أخوه الكبير اللاحج بوهران بما فعله فاتصل بي يقول:

«سيدي السلطان، هل ترون كيف خلعتُموني عن عرش آبائي وأجلستم في مكاني كنودا لا يحفظ لكم نعمة ولا يرعى لكم معروفاتها هو قد خرج عليكم. إذا تكرمتم فضلا ومنة منكم بإعادتي إلى عرشي فإني سأكون عبدا مطيعا لكم ما حييت».

لم تكن نرجو من هذا الأمير خيرا مثلما لم تكن نرجوه من أخيه مسعود من قبل، إلا أن السياسة الآن تقضي بأن نعفو عنه

لضرب به أخاه مسعودا.

في هذا الوقت كنت راسيا باثنين وعشرين سعيقة قرابة سواحل مستغانم التي فتحها دون عناء. كانت مستغانم قريبة من وهران التي كانت بيد الإسبان. وحينما كنت في مستغانم قدم علي الأمير عبد الله فمثل ردائي بتضرع، فأرسلت معه ألفا من رجالي إلى تلمسان، أما أنا فقد انشغلت بإسكان ألفين ومائتين وخمسة وثلاثين مهاجرا أندلسيا في نواحي مستغانم كنت قد حملتهم في سفني من إسبانيا، فوهبت هم أراضي يقومون باستصلاحها والعمل فيها، لقد كانوا عمالا ماهرين، كل واحد منهم صاحب صنعة يتقنها بجملة كبيرة.



قلعة المنصورة (تلمسان)

## خدعة حربية

علمت أن عبد الله وصل إلى تلمسان وصار حاكما عليها،  
بينا تحصن أخوه بالقلعة خمسة وعشرين يوما، أدرك البحارة  
بأن الحصار سوف يطول كثيرا لكونهم لا يملكون مدافع  
تمكهم من الاستيلاء على القلعة، تشاوروا فيما بينهم وقالوا:  
«لنرفع الحصار وننظاهر بالفرار، فهؤلاء البدو لا خلاق  
لهم ولا يميزون بين النصر والهزيمة. سوف يشيعون بينهم أن  
الأتراك قد ولّوا هارين ويدفعهم الحرس على الغنائم إلى تعقبنا،  
حينها نقضي عليهم وستولي على القلعة ونسلمها للأمير عبد الله  
ثم نعود إلى الجزائر».

وهذا ما حدث بالفعل فقد خرج أنصار مسعود المتحصنين  
بالقلعة وهم يتصايحون. «هاهم الأتراك يوثون هارين !!»،  
وانطلقوا متعقبين البحارة، في هو إلا أن فاجأهم البحارة بهجوم  
مباغت قضوا به على أكثرهم

إن هؤلاء الأعراب لا علم لهم بفن الحرب، ويحسون أن  
قتال الحيوش النظامية يشبه أعمال الهب في الصحراء، إن الإسمان  
العارفين بكون القتال ذاقوا مرارة اهزيمة مرات عديدة على يد  
البحارة الأتراك، فلو كان هؤلاء البدو عقل لما عرضوا أنفسهم  
لهلاك

وفوق ذلك لم يكونوا يعيرون النفس البشرية أي اعتبار  
فقد كانوا يعرضون أنفسهم للقتل بطريقة حمقاء زاعمين بأن  
ذلك كله قدر من الله !!.

في الحقيقة كان بينهم شجعان يجيدون الصروسية، إلا أن  
طريقة ركوبهم للخيل كانت بدائية جدا، فضلا عن كونهم لا  
يملكون أسلحة جيدة، وحتى لو وجدت فهم لا يجيدون  
استعمالها، كي أنهم لم تكن لهم أسلحة مارية جيدة. والسبب  
الأول في اهزائمهم يرجع إلى كونهم لا يعرفون إطلاقا فنون  
القتال بشكل جماعي

هكذا سقطت قلعة تلمسان في يد البحارة، بينا فر السلطان  
مسعود مع خمسة أو عشرة من رجاله دون أن يعرف أحد  
مصيرهم. هذه هي عاقبة من لا عقل له، فمن يكون مسعود  
هذه حتى يتحداهي وأن بايلرباي أعظم سلطان في العالم، وهو  
يعلم بأنني أأ وأحي عزوح أسكنه الله فسيح حياته هزمننا ملك  
إسمانيا مرات عديدة !!.

إن السافل مسعود هذا تحي عن ستة آلاف من المقاتلين البدو  
الذين تحصن بهم في القلعة وهرب منها دون أن ينبرهم، حتى  
أنهم ستمروا في التصدي لبحارتي وهم لا يعلمون بأن سيدهم  
قد لاذ بالفرار. قبل أن يعلنوا استسلامهم، وقال رؤسائهم  
لبحارتي:

«معاد الله أن نكون قد تعمدنا عصيان سلطان الجزائر خير الدين باشا. فهو سيدنا والأتراك أبائنا ماذا علينا أن نفعل؟  
لقد حملنا السلاح في وجوهكم خوفا من مسعود الذي كان يهددنا باستدعاء الإسبان، وإلا فمن بيننا من اشترك في غزوات كثيرة مع عزوج رئيس، ساعونا فمنا الإساءة ومنكم العفو والكرم».

في معركة تلمسان هذه أعمل بحارتي السيف في رقاب خمسة آلاف بدوي متمرد وعفوا عن ألقوا سلاحهم وأعلنوا استسلامهم وخصوعهم. وفي يوم الجمعة قرئت الخطبة باسم مدك البر والبحر مولانا السلطان سليم خان وبقش اسمه الشريف على السكّة.

ودّع الحجرة السلطان عبد الله واستأذنه في الانصراف إلى الجزائر، إلا أن السلطان رجاهم أن يمكثوا مدة أخرى، فأعلموه بأنه لم يؤذن لهم أن يبقوا يوما واحدا بعد تسليم تلمسان إلى سلطانها، وأهم ملرمون بالعودة إلى الجزائر. وبعد إلحاح السلطان على نقائهم رضوا أن يتركوا له مائة منهم.

أولى السلطان بحارتي رعاية كبيرة؛ فكان يطعمهم مما يأكل، وأما بقية التسعمائة بحار فقد عادوا إلى الجزائر يحملون معهم عشرين ألف دينار مرفوقة بهدايا كثيرة. قرأت الرسالة التي بعث بها السلطان عبد الله، وألفيته قد خطها بأسلوب في غاية

الأدب، قلت لبشارتي مستسما:

«ها هو الآن ينطق بالحق، فلننظر ماذا يفعل بعد أن يستقر على عرشه، هل سيسلك سيرة أخيه؟  
صحك الرؤساء لمقاتلي هذه؛ سيما رحلت أفكر في حل مسألة ابن القاضي بعدما فرغت من أمر تدمسان.

لقد كن ابن القاضي أحد عظماء العرب بالجزائر، كما كان يكنّ لي قدرا كبيرا من الصدق والمودة. حاول سلطان تونس أن يجبره للخروج عني إلا أنه لم يوافق على ذلك ودعاه إلى لزوم الطاعة للأتراك والتعية لهم. الآن توفي هذا الرجل العاقل وحل محله ولد طائش يدعى ابن القاضي أيضا، فكان أول ما فعله أن اتفق مع سلطان تونس عني أن يكونا يدا واحدة ضدي قائلا له:

«لنكن يدا واحدة، ونخرج الأتراك من بلاد العرب».

كانت الرسالة التي بعث بها هذا الولد الشقي إلى سلطان تونس قد وقعت في يدي، وذلك قبل أن يمضي شهران على وفاة والده، وبما جاء في تلك الرسالة:

«لنكن أنا وإياك يدا واحدة لاستتصال شافة الأتراك، ونطرد خير الدين من الجزائر، فأكون أنا سلطانا عليها في مكانه، وقتها سوف أغدق عليك أموالا طائلة لقد كان والدي يحب الأتراك كثيرا، أما أنا فلا يوجد قوم أبغض إليّ منهم».

عندما وقعت الرسالة التي بعث بها ابن القاضي إلى سلطان تونس في يدي عرفت منها ما كان يحكيه من مؤامرات ضدي،

فخرجت لحرب سلطان تونس باثني عشر ألفا من رجالي، ونزلت بسهل مغطى بأشجار البلوط والكستناء. عندما رأي سلطان تونس من بعيد حسني حليفه ابن القاضي، فأمرته بول من القدائف جعلت قواته تشتت كحبات انعقد، ووقع السلطان في الأسر وجيء به إليّ، فلم أجد بدا من أن أنصحه وأحذره من تكرار فعلته تلك، ثم أمرت بإطلاق سراحه. كنت أعرف أنه سوف يقتلني شر قتلة لو وقعت أسيرا في يديه، إلا أن عفوي عنه وما أظهرته من رفق به جعلت كل أهالي أمريقي يتعلقون بنا ويزدادون حبّا لنا.

في هذه المعركة استوليت على ثلاثمائة خيمة أمرت بإرسالها إلى الجزائر، يسما أقمت في تلك المنطقة بين خمسة أيام أو عشرة كان المكان في غاية الروعة، فقد كانت العيون تجري في جميع أطرافه، والطيور تعرد بأحان تأخذ الألباب، استمتعتنا فترة من الزمن في ذلك المكان، ثم أعطيت أمري بالتحرك للعودة إلى الجزائر. كنا نمر عبر ممر شديد الوعورة لا يمكن أن يسير فيه راكبان جبا إلى جنب، في هذا الوقت كان ابن القاضي قد كمنّ لنا هناك هو ورجاله، فلم نشعر إلا وهم يهجمون علينا من كل حذب وصوب. لم أكن أتوقع أن تقع في مثل هذا الكمين، وهكذا سبب عدم ملائمة المكان للقتال مع هول المصاحاة فقدت الكثير من رجالي. دامت المعركة ثلاث ساعات ونصف، تمكنا بعدها من تجاوز الممر، واستطعنا أن نصل إلى الجزائر. لقد سقط في

هذه المعركة سعمائة وخمسون شهيدا من البحارة. وبسبب هذا العذر أخذت على نفسي عهدا أن أنتقم من ابن الحرم هذا المدعو ابن القاضي، ولن أعفو عنه أبدا. كان تقديرا إلهيا، حيث هزمت ملك تونس وأسرته. ولم أتمكن من الانتصار على بدوي مثل ابن القاضي .. ففني الوقت الذي كانت فيه فرائص ملوك أوروبا ترتعد بمجرد ذكر اسم «بربروس» كانت حركات العصيان تتوالد في الجزائر، لقد بلغ العرور باب القاضي حدا لا مزيد عليه، حتى صار يدهي بقوله:

«لقد هزمت خير الدين باشا، وعن قريب سأضرب عنقه إن شاء الله»

بلغني أنه جمع حوله عددا كبيرا من الأعراب وقبض على خمسة أسير تركي قام بتقييدهم بالسلاسل الثقيلة، وربطهم بالرحى وجعلهم يدورون حولها وهم مقيدون، فكنتت إليه أن يطلق سراحهم، وإلا فإن عاقبته سوف تكون وحيمة. لم يجب طلبي، بل راح يُسوِّف مدة قبل أن يعلمني صراحة بأنه لن يملك أسرهم لأنهم سوف يثأرون منه عندما يملعون مآلئهم ومن جانب آخر راح يرسل إلى كل النواحي يجمع الناس ويدعوهم إلى التمرد فائلا.

«ما الذي جاء بالأتراك إلى الجزائر؟ هذه بلاد العرب لنجتمع ونتخلص منهم جميعا»



## بحار خائن

استجاب بعض الممثلين الناكرين لحميل إبقادهم من رقب الإسبان. في هذا الوقت كان لدي اثني عشر ألفاً من البحارة الأتراك معظمهم في عرض البحر. لقد كان عليّ أن أحتاط لأيّ غارة يمكن أن يشنها النصارى، ولأجل هذا لم يكن بوسعي أن أجمع كل رحلي وأرسلهم لقمع الكافرين في ظل هذه الظروف خيّل لبعض الأتراك الذين كانوا في صفوها بأنه لا يمكنني أن أحتفظ بالجزائر. ومن هؤلاء أحد البحارة الأغرار يدعى قارة حسن. لقد حدثته نفسه أن ينقلب عبي ويجلس في مكاي، وأوهمه عقده الصغير بأنه سمقدوره أن يفعل ما عحرت عنه أبا. وعندما بلغني بأنه قد راسل ابن القاضي قمت بطرده.

شعرت بحالة من الفتور وقلت يجب أن أعطي لأهل الجزائر درساً لن ينسوه. فمن القاضي كان مُتَلَهِّفاً ليكون مسطناً على الجزائر، إلا أنني لو تركت الجزائر فيها سوف تتمزق مرة أخرى إلى ألف قطعة، كل منها سوف تترامى في أحضان الإسبان واحدة تلو الأخرى. فلا ابن القاضي يملك القدرة على توحيد الجزائر ولا هو يملك العقل والشجاعة ولا الحيوش التي تمكّه من التصدي للإسبان، ليس هذا فحسب؛ بل لم يكن لديه لا أسطول ولا حتى سفينة واحدة. ترى عندما تملأ أساطيل الكفر

## الآق كيف له أن يرفع رأسه؟!

قل قدومنا كنت عادة الأهالي عندما يرون الكفار يتفرقون كأسراب الطير في السماء. فمذا أكثر من مئة سنة لم يكن في الجزائر دولة ولا حكومة. لقد كان الكفار يعرفون هذا ولأجل ذلك استولوا على أحسن الموانئ الجزائرية. والآن فإن كل ما بيناه يوشك أن يذهب في لمح البصر بسبب حصة من المحتوئين. إن الازدهار الاقتصادي والتجاري الذي حدث في البلاد بسببنا سوف ينتهي بمجرد معادرتنا للجزائر، إلا أن أصحاب العقول الصغير كانوا غافلين عن هذه الحقيقة. فكرت في أن أترك الجزائر مدة من الزمن وأتخصن في بعض المناطق البعيدة أشغل حلالها بالقرصة، ولا أ تدخل في أي من الأعمال المتعلقة بالبر، وأنظر كيف سينظم الجزائريون أمورهم، وكيف يؤمّنون قوتهم، وكيف يدافعون عن بلادهم؟!

كنت متأكدا بأنهم سوف يفعلون مثلما فعلوا قبل سنوات مضت. سوف يرسلون رسولا يرجوني بصراحة "ثيابة عنهم" أن أرجع إلى الجزائر. وقتها سوف أرجع إلى الجزائر ولن تقدر أي قوة على إحراجي منها مرة أخرى، وحيتها سيتأكد لهم بأن إدارة الجيش والدولة أمران خاصان بالأتراك.



## ثورة ابن القاضي

وفي النهاية هبت العاصفة وشن ابن القاضي هجوما كبيرا بجيش قوامه أربعون ألف رجل. كنت متأهبا لذلك لأنني توقعت مثل هذا الهجوم من قبل، بل كان لدي جواسيسي في مجلس ابن القاضي نفسه، وكل ما يقال، وما يراد فعله كان يصلني أولا بأول.

قمت بإرسال عشرة آلاف بحار للتصدي للثائرين وشتبكوا معهم في معركة كبيرة دامت حتى العصر، فقدت في تلك المعركة ألفي شهيد وألفي جريح. إلا أن المعركة انتهت بالقضاء على العصاة عن بكرة أبيهم، ولم ينح منهم سوى سبعائة ثائر. أما بقيتهم فقد تم قتلهم أو أسرهم، وكان على رأس الثائرين الدين وقعوا في الأسر شيخ مدينة الحرائر، أمرت بإعدامه وقطع جسده اللعين إلى أربع قطع، وتعليق كل منها على باب من أبواب المدينة ليكون عبرة لغيره!...

وبعد إخماد الثورة أتيت بمائة وخمسة وثلاثين من رؤساء الممتنة مقبدي الأيدي فجمعت علماء الجزائر وقلت لهم:

«سأدتي المشايخ، ما حكم هؤلاء الأسرى في ديننا وشريعتنا؟»

أجاب أحد العلماء الطاعين في السن قائلا

«إن حكم الشرع في حق الخارجين عليك وعلى عساكرك هو الموت، لأنك تمثل في هذا البلد ملك البر والبحر مولانا السلطان سليمان خان، فأنت أمير أمرائه، وزيادة على أنك التي تفضلت بها على بلدنا، فإنك قمت بإنقاذ رقابتنا من ذل التبعية للكفار وظلمهم، وكنت سببا في مضاعفة خير وبركة بلدنا بما فتحه الله على يديك من أسباب الرزق والرفاهية، ورأيتنا في عهدك وعهد أحيك المرحوم عروج رئيس من حسن الإدارة والتدبير ما لم نره من قبل. والآن هؤلاء المائة وخمسة وثلاثون بانسا قد خدعوا بأمان معسولة ألقاها إليهم بعض المفسدين فارتكبوا جرما عظيما. إلا أن من بينهم كثير من الغزاة الدين تصدوا لكفار إسبانيا، واليوم قد أخطؤوا وأساءوا. فإن كان ثمة محال للعفو فاعف عنهم، واقبل اعتذارهم وتبعتهم لك. فالعفو عند المقدرة هو عين المروءة والشرف».

التفتُ إلى رؤساء البحر وقلت

«وأنتم ماذا ترون؟»

فتكلم أحد الرؤساء قائلا:

«سيدي الباشا.. أنت أعلم بهذا الأمر منا، فنحن لسنا علماء دين إنما نحن جنود مقاتلون مسؤولون أمام سلطان العالم المعظم بإسطنبول، وملزمون أن تكون جميع حركاتنا مبنية على هذا

الأساس، فليس هذا أوان العفو واللطف... تُرى ما الذي كان سيفعله يا هؤلاء العصاة لو تمكنوا من؟!

لقد ثبت باعترافهم ما اقترفوه من جرم، فلو عفوونا عنهم سوف يكون هذا مثل السوء للآخرين. نحن هنا في شمال إفريقيا لسنا سوى حفنة من الأتراك متناثرين في بلد أكبر أضعاف المرات من الأناضول، محاولين ضبطه ببضعة آلاف من الأتراك. وفي ذات الوقت نتصدى للإسبانيا التي تعد أكبر بلد في أوروبا. أرى أنه من الحزم أن تأمر بضرب أعناقهم ليكونوا صبرة لغيرهم.



## وغادرت الجزائر

ترجّح لديّ أن ما قاله ذلك الرئيس هو عين الصواب، فأمرت بضرب أعناق زعماء التمرد دون أن نمد أيدينا لأموالهم وأموالهم. حزنت كثيراً لإصدار هذا الأمر ولم أستطع النوم في تلك الليلة إلا أن حماية الدولة كانت تقتضي ذلك.

إن هذا البلد الكبير لا يمكننا أن نحكمه بالشدة، وبموقف الحازم هذا نكون قد أثّرنا الرعب في قلوب العصاة. فلن تُسوّل هم أنفسهم شق عصا انطاعة مرة أخرى ولو إلى حين. إلا أن هذا الموقف لم يكن يبعث على الارتياح على مستقبلنا، فأهلي هذا البلد لا يرغبون فينا وليسوا سعداء بوجودنا فالأنسب لنا هو أن نجتمع أمرنا ونسحب.

يكفي أن نحظى بمساندة الأهالي. أما إذا بدأ أنهم ليسوا سعداء بوجودنا فتركنا هذه الديار يصحح أمرنا لازماً. كنت أفكر في هذا الأمر منذ زمن بعيد، ولأجل ذلك اتخذت قراراً بشكل قطعي. كنت أدرك أننا عندما نسحب لن يتمكن العرب من إدارة الجزائر، وفصلاً عن عدم قدرتهم على التصدي للإسبان، فإن انسحابنا سوف يلحق أضراراً بالغة بالحركة التجارية التي يمتد أثرها إلى الجميع.

كنت على يقين من أن العرب سوف ينشغلون بعضهم

بعد اسحابي، وأن الأهالي سيلقون عنتا كبيرا من جرّاء ذلك. ثم لا يجدون بعد ذلك حيلة تخرجهم من ورطتهم سوى اللجوء إليّ مرة أخرى راجين مني العودة لحكم البلاد. كنت واثقا من ذلك ثقتي في إيماني واعتقدي.

في تلك الليلة رأيت الخضر عليه السلام في منامي فتساءلت خيرا بتلك الرؤيا وخالجي شعور بأن ذلك إشارة إلى صواب القرار الذي اتخذته.

و ذات صباح حملت بحارتي وعائلاتهم وأموالهم في سفني الخمسة وعشرين التي كانت راسية في المرسى، وأرسلت إلى بقية السفن التي خرجت لدعرو أو تلك التي كانت في عرض البحر أن تتوجه إلى ميناء جيغل بدلا من ميناء الجزائر.

تدفق جميع أهالي مدينة الجزائر إلى المرسى، فقد حسوا أننا خارجون لغزو في سواحل إسبانيا، إلا أنهم عندما رأونا قد حملنا نساءنا وأموالنا في السفن أصيبوا بدهشة كبيرة.

حيّمت أجواء من الحزن والكآبة على قلوب عدد كبير من الأهالي بسبب عزمنا على معادرة الجزائر. وعندما شرعنا في ركوب صعدنا تعالت أصواتهم بالبكاء وهم يقولون:

«إذا جاء الإسبان غدا، فمن يحميننا منهم؟»، ثم شرعوا في الدعاء على ابن القاضي الذي أصيب بالذعر هو الآخر فكتب إليّ يعتذر عن عصيانه وتمرده، طالبا بكل وقاحة أن أعفو عنه

مثما يعصو الوالد عن ولده العاق!!.

لم أقبل اعتذاره وقت لرسوله

«ها هي مفاتيح قلعة الجزائر سلمها لسيدك المتلهف على السلطان والملك. وليأت إلى الجزائر وليستمع بالجلوس على عرشها بعد أن ولغ في دماء المسلمين، ولننظر كيف يدير أمور البلاد».

لم يكن الحرائريون خائفين من الإسبان فحسب؛ بل كانوا حائمين من السلطان سليمان خان أيضا فهم لم يرضوا بالدليلر ياي الذي ولّاه السلطان عليهم، فما الذي سيعمله بهم السلطان يا ترى؟!

أرسل الأهالي وفدا كبيرا من العمداء إلى سفيتي، فلما حصروا رجوني أن أصرف النظر عن فكرة الرحيل وأبقى في الجزائر. لم أراجع عن قراري إلا أنني اعتذرت إليهم بلطف ولين جبرا لمخاطرهم فعادروا سفيتي وقلوبهم تعتصر أسى.

بعد رحلة دامت يوما كاملا وصلنا إلى جيغل التي كان بها مرسى جميل يتربع على ساحل الجزائر. كانت جيغل أول قلعة فتحتها أنا وأخي عزّوح رئيس.

عندما علم أهالي جيغل بقدمنا للاستقرار بها أقاموا احتفالا كبيرا فرحا بقدومنا. فالآن جميع الثروات والأموال التي كانت تتدفق على مدينة الجزائر سوف تتدفق على جيغل. في

اليوم التالي وصل إلى جيجل شيوخ القبائل وأعيانها من الجزائر بل حتى من تونس. قتلوا يدي وأعلنوا حصوعهم وتعيتهم لمولانا السلطان سليمان خان، وأهم سامعون مطيعون لما يأمر به. ثم دفعوا إلي الخراج السنوي وأعدوني بأنهم حاضرون لإمدادي بما أحتاج إليه من رجال وقالوا:

«معاذ الله أن نكون قد شققنا عصا الطاعة لمولانا.. فنحن لا نرضى أن تتسب إلينا هذه اللوثة. إننا معتزون بتبعيتنا للسلطان سليمان خان ولا صلة لنا بما جرى في الجزائر من تمرد وعصيان».

لم أطل المكوث في جيجل بل عَجَلْتُ بالخروج للعزو فوصلت إلى سواحل صقلية وقصمت حاصرتها باليرمو PALIRMO. استوليت خلال ذلك على تسع قطع بحرية من سفن الكمار. كانت تحتوي على أربعين مخزنا مشحونا بالقمح والشعير والزيتون وريث الريتون والخبر الجاف والألواح والموال والرز والقهوة والقماش والرصاص.

أقمت في جيجل عددا من الثكنات والمارل وبعث ستة وثلاثين ألف كيل من القمح بأسعار رخيصة جدا للخازين. كما قمت بساء مصع صغير لباء السفن

في نفس الصيف أرسلت سفني للعزو مرة أخرى. فتوجهت إلى خليج البندقية حيث استولت هناك على ثلاث سفن تبين أن كلاً منها تحمل عشرة آلاف دوقة ذهبية. بالإضافة إلى المئات

من الأسرى، كان من بينهم ستون أسيرا مسلحا أمرت بإطلاق سراحهم فوراً. دامت هذه العروة ثلاثة وعشرين يوماً، وفي اليوم الرابع والعشرين رست سُفُنِي بمرسى جيجل حيث أمرت بتوزيع حمولة إحدى السفن على الفقراء وبيع حمولة السفن الباقية فكانت حصّة كل بحار مائة وخمسة وثلاثين دوقة ذهبية وأربع مئذوق وخمسة مسدسات وثمانية قناطير ونصف من الحديد وسبعة عشر طية قماش بندقي<sup>(1)</sup>، مع مائتين وخمسة وعشرين طية قماش أخرى

كانت العنائم من الكثرة بحيث جعلت التجار وأصحاب السفن يتقاطرون على جيجل لشراؤها أما أنا فقد صنعت لنفسي سفينة ذات ستة وعشرين محذافا. كانت كبيرة وسريعة الحركة. وقمت بدفعها لتشارك في سباق بقية السفن فسبقتها جميعا

عندما حل الشتاء سحبت السفن إلى البر ولما حل الربيع شرعنا في دهبها وتجهيزها وإصلاحها. ثم خرجت للعزو في خمس عشرة قطعة. فدخلت أولا خليج جنوة ومكثت هناك أربعة عشر يوما أعير على سواحلها. استوليت خلال تلك الفترة

(1) دوقة Duka عملة ذهبية إيطالية، كانت تستعمل في السدان المطلة على البحر المتوسط في عصر خير الدين بربروس

(2) نسبة إلى مدينة البندقية الإيطالية



على واحد وعشرين سفينة، أمرت بإرسالها جميعا إلى جيجل. وبعد ذلك تجاوزت مصيق ماسينا MESSINA ودخلت خليج البندقية فلمحت أسطولا صغيرا من ثلاث سفن تنطلق كالسهم هاربة منا. فتعقبتها حتى أدركتها فإذا بها سفن سان رئيس.

صعد سان رئيس إلى سفينتي فقبل يدي ويكى من شدة الفرح. لقد مضى زمن طويل لم نلتق فيه. ثم تعقبني بسفنه حتى خرجنا من خليج البندقية. استولينا في أثناء ذلك على تسع قطع بحرية كافرة أخرى. وهكذا بلغ عدد القطع البحرية التي غنمناها ثلاثون سفينة. كان بعضها مشحونا بالقماش وبعضها بالإبريسم وبعضها بالعسل وبعضها بالقمح وبعضها بالفلفل؛ بينما كانت إحداها مشحونة بالبقاتلين.



(1) كلمة فارسية معربة تعني التحرير الخالص.

## تذمر في الجزائر

في هذه الأثناء وصل قورد أوغلو رئيس -الذي كان أحد رؤساء البحر التابعين لي- إلى جيجل ومعه ثلاث قطع بحرية. فدفعت إليّ عشرة آلاف دوقه ذهبية أرسلتها إلى الخزينة. في تلك الأيام لم يكن يمضي أسبوع دون أن يأتي رؤساء البحر إلى مرسى جيجل بسفينة من سفن الكفار التي يستولون عليها.

في هذا الوقت كانت الوفود تتوالى علينا من الجزائر فقد عرف الأهالي قدرنا جيدا خلال فترة قصيرة لمعادرتنا للمدينة. لقد اختل نظام الأمن وقد هورت الأوضاع في المدينة، فتصاعفت نتيجة لذلك مشاعر التذمر من ابن القاضي. في النهاية شكّل الأهالي وفدا ليكلم ابن القاضي فأتوه وقالوا له:

«نعتقد بأن استدعاء خير الدين باشا فيه خير لنا جميعا. فقد بلغ به الكمال أن عادر المدينة من أجل أن يعيش أهلها في أمن وسلام. فهل يوجد أحد فعل مثل هذا من قبل؟ لقد جئناك راجين أن تسمع لنا بدعوة خير الدين من جيجل وتنصرف أنت إلى قبيلتك».

فأجابهم ابن القاضي قائلا:

«أيها الحمقى! ألا تدرون أن خير الدين ترك المدينة خوفا

مني؟».

لم يتحمل قارة حسن -الذي كان بحارا عندي قبل أن أطرده من خدمتي- ادعاء ابن القاضي فقال:

«مولاي السلطان . إن خير الدين الذي أعرفه لا يخاف أحدا غير الله . فلا تظن أنه ترك المدينة خوفاً من هذا أو ذاك . فهو إنما فعل ذلك لأمر في نفسه . إلا أنه بكل تأكيد لم يترك المدينة خوفاً منك».

اغتاط ابن القاضي لمقالة حسن قارة إلا أنه لم يكن قادراً على أن يمسه سوء . فأمر في الحين بصرب عتق زعيم الوفد الذي اقترح عليه دعوتي إلى مدينة الجزائر . لقد كان ذلك الرعيم عالم دين عربي .

كانت هذه الحوادث توحى بقرب عودتي إلى الجزائر . ومع ذلك كان من اللازم أن نترث قليلاً إلى أن تتحه الأوصاع كلية لصالحنا . فقد كان نفوذ ابن القاضي يتلاشى يوماً بيوماً . ومع مرور الزمن كانت قيمته وأهميته تتلاشى بين الأهالي

كانت مدينة الجزائر تُدار فعلياً من طرف قارة حسن الذي كانت له بضعة سحر راسية في الميناء . غير أنه لم يكن يستطيع الخروج للعزو لأنه لم يكن لديه بحارة . وهكذا خلال فترة قصيرة من الزمن تليت تلك السفن لاحتياجها إلى عناية كبيرة . وما لم تتم صيانتها فإنها ستعرض لللى واليَقْدَم ، مما يؤدي إلى ركود التجارة في المدينة تبعاً لذلك .

مصت ثلاثة أعوام على معادرتنا لمدينة الجزائر . تضاعفت خلالها الوفود التي كانت جميعها تطلب منا العودة إلى الجزائر .

في هذه الأثناء خرج سان رئيس في تسع قطع بحرية للغزو فاستولى على اثنتي عشرة سفينة كافرة ، وتوغل في مصيق حص طارق حتى أعار على السواحل الحسوية لإسبانيا وقام بإيقاظ ثمانية أندلسي من مظالم الإسبان . حملهم جميعاً في سفنه وقدم بهم إلى الجزائر فأمرت لهم بكل ما يحتاجون إليه من مؤونة ولوازم تيسر لهم سبيل الاستقرار بالجزائر .

دات يوم رأيت سان رئيس مُستاءً فقلت له

«سان .. خيراً إن شاء الله .. ما الأمر؟» .

قال: «ما الذي تتوقع أن يكون يا باشا؟ .. لا أكاد أطيق نفسي بما يجري .. فأنت وأخوك عزّوج رئيس ، أسكنه الله فسيح جناته ، بذلتهم جهوداً مضنية وتضحيات كبيرة لأخذ الجزائر . وبعد أن تمكنتم من ذلك ، ها هو أجل مرسى في شمال إفريقيا بيد أحرابي كنود لا يعرف كيف ينتفع به لنفسه ولا يدعنا نستخدمه . بينما أنا عائد من الأندلس ، بدا لي أن أرسو بميناء الجزائر ، فاستقبلني بقذائف المدافع . لقد كنت قادراً على إسكات مدافعه تلك ، والاستيلاء على المدينة دون عناء . لكنني خشيت أن تغضب علي ، فلم أتجرأ على ذلك . والآن ائذن لي أن أطرد هذا الكلب المدعو بـ «ابن القاضي» ونستقر في الجزائر مثلما كنا من قبل» .

## بروس في الجزائر مرة أخرى

لم يتوقف أهالي الجزائر عن إرسال الوفود إلينا. في الأخير دعوت سنان رئيس وقلت له:

«اسمع يا رئيس يبدو أن الطريق إلى الجزائر قد تمهد لنا. فهذا الشتاء يجب أن يكون آخر فصل نقضيه في جيجل. بإذن الله سنمضي إلى مدينة الجزائر مع حلول الربيع. إن ابن القاضي لم يبق له أحد يرضى به في المدينة. ها أنت ترى أنه لا يمضي أسوع دون أن يصلنا فيه وفد من الجزائر يرجو قدوما عليهم. إن الدلال الزائد يضر العاشق علينا أن نضرب الحديد ما دام ساخنا. لقد حان أوان عودتنا، ولأجل ذلك سأتركك هنا تحلفني في أهلي وسفني وبحارتي. أما أنا فسامضي إلى الجزائر. فإذا دخلتها أرسلت إليك بما يجب أن تفعله».

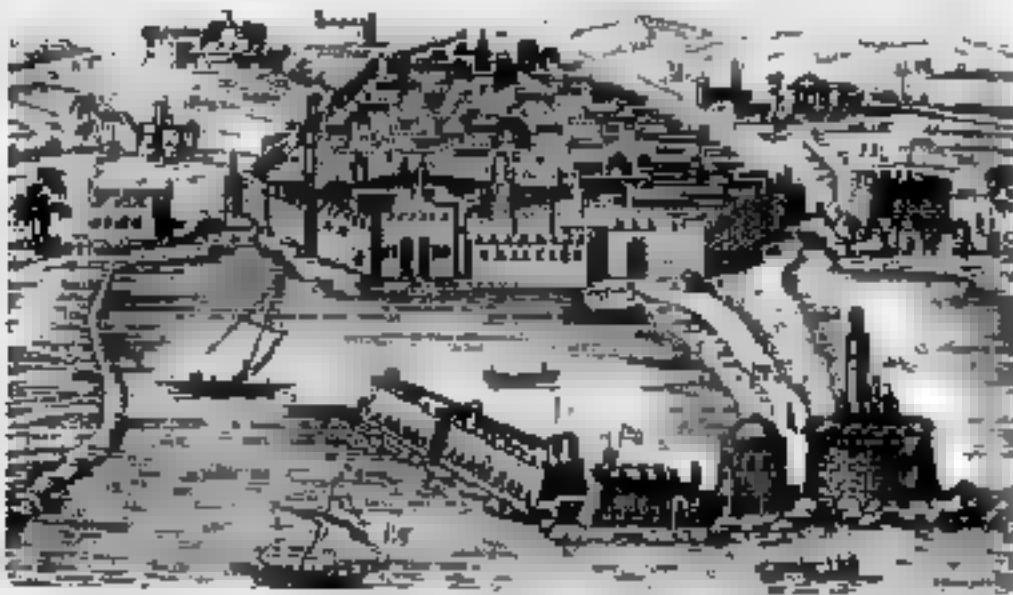
أجاب سنان رئيس: «سمعا وطاعة يا باشا». قال ذلك وخرج

عملت كثيرا في ذلك الشتاء. فقد قمت خلال ذلك بتجهيز سفني وإصلاح مدافعي. مضت الأيام سريعة ولم نشعر حتى حل الربيع حيث ارتبت أكاليل الزهور. وشرعت الوفود تصل إلينا من الحرائر وغيرها المناطق الأخرى. كانوا كلهم يتوسلون إليّ أن أعود إلى الحرائر وأتولى إدارتها من حديد. وكان من بينها

وفد أهدى لي فرسا شقراء يحجز اللسان عن وصف جمالها، فقبلتها منهم بامتنان كبير.

تمركت من جيجل في اثني عشر ألف بحار. منهم أربعة آلاف فارس وثمانية آلاف راحل. ولم أترك مع سنان رئيس في حيحل سوى ثلاثمائة بحار. وفي الطريق التحق بآلاف من فرسان الأرياف المجاورة. كلهم كانوا يريدون أن يشتركوا معنا في دخول الجزائر.

عندما اقتربنا من المدينة تعرض لنا رجال ابن القاضي. ولكي ألقى الرعب في قلبه وقلوب رجاله أمرت على الفور بالتصدي لهم حيث أسفرت المعركة عن مقتل ثمانية منهم.



مدينة الجزائر في القرن 16

## مقتل ابن القاضي

تجمد الدم في عروق ابن القاضي عندما علم باقترابها من الجزائر. لقد كان لديه اثنا عشر ألف فارس وثمانية آلاف رجل. إلا أنه كان يشك في رعبتهم أو قدرتهم على التصدي لها وحتى لو حملوا السلاح في وجوها فإن هذه القوة لا يمكنها أن تمعنا من الاستيلاء على الجزائر. ومع هذا فقد حاول ابن القاضي أن يجرب حظه العاثر.

وهكذا ففي إحدى الليالي أعار على ثلاث معسكرات لنا كنا قد نصبناها في طريقنا إلى الجزائر. فكانت النتيجة أنه فقد مائة وخمسة وثمانين من رجاله وسعة وتسعين من حيوله بينما لم يقتل أي أحد من رجاله. وعندما طلع الصباح أعاد ابن القاضي هجومه عليه مرة أخرى. فكان رجاله يتظاهرون بالقتال بينما هم في الحقيقة كانوا يمرون بها وهناك لائدين بأعالي الجبال طالعين السجاة.

دام هذا القتال الغريب حتى المساء، حيث قُتل قائده قارة حسن -الذي كان أحد حارقي ثم تمرد علي ولحق به-، فلم يبق لابن القاضي أي مجال للنجاة. وعندما كان يهيم بالفرار طعنه أحد شيوخ العرب برمح حتى خرجت من ظهره ثم أمر الشيخ بقطع رأسه وأرسله إليَّ!!

وهت لفرس التي كان يركبها ابن القاضي لذلك الشيخ مع مائة دوق ذهبية. لقد كنت تدرك المرس ذات قيمة كبيرة إذ أنها لا تقل عن ألف دوق.

عندما قتل ابن القاضي ألقي رجاله أسلحتهم وانبطحوا على الأرض تعبيراً عن استسلامهم. لم يكن لمعاقبة هؤلاء الناسين أي معنى. فعفوت عنهم ومضوا لحل سبلهم؛ بينما توسل إليَّ بعضهم أن أقبل انضمامهم لخدمتي فوافقت على ذلك.

لم يكن هؤلاء العرب يعرفون النظم ولا الطاعة. فهم لم يعيشوا في كنف دولة يتسبون إليها. هكذا جاءوا وهكذا كانوا يقضون حياتهم. غير أن بعض حارقي الذين قدموا من الأناضول كانوا قد التحقوا بخدمة ابن القاضي، فسودوا بخيانتهم تلك وجه الأتراك. بعد هلاك ابن القاضي جاءوا جميعاً ووقفوا بين يدي مطأطي الرؤوس جاعين أيديهم على صدورهم. لقد وقفوا بتلك الطريقة تعبيراً عن استسلامهم لأن الأتراك لم يكونوا ينطحون أرضاً مثل العرب.

تعددت أن أخذ قراراتي بسرعة، لكنني ترددت قليلاً بشأن حارقي. وسبب ذلك يرجع إلى أن فيهم من قدم خدمات كبيرة لنا وفيهم من يعود إليه الفضل في القضاء على الكثير من رؤوس الإسبان والاستيلاء على سجنهم.

وقف الآلاف من رفاقي البحارة صفوفاً وقد حبسوا أنفاسهم

لمعرفة ما لذي سافعله بزملائهم. لقد كان العفو عن هؤلاء البحارة مخفوقا بعدة محاذير. أهمها: أني لا أعرف كيف يكون صداه في إسطنبول فهؤلاء البحارة يعتبرون قد تمردوا على السلطان ثورتهم عني

وبيني أنا أفكر فيما يجب أن أفعله، أحسست بصوت يأتي من داخلي يلح عني في أن أعفو عنهم فقلت فجأة: «قد عفوت عنكم جميعا خذوا أسلحتكم»..

اغرورقت عيونهم بالدموع وأخذوا أسلحتهم وهم لا يكادون يرفعون رؤوسهم من الخجل. التفت إلى زملائهم البحارة الذين اصطفوا حلقي، فإذا بي أرى في عيونهم نظرات الفرح والامتنان.

تأكد لي فيما بعد صواب قراري هذا. إذ أن أولئك البحارة لم يدحروا جهدا إلا وبدلوه لمسح وصمة العار التي لحقتهم بتمردهم علي، إلى أن قتلوا جميعا رحمهم الله.



## الدخول إلى الجزائر

بعد أن فرغت من حل مسألة ابن القاضي وغيرها أصدرت أوامري بالمسير، حيث وصلنا إلى مدينة الجزائر بعد ساعة. فخرج أعيانها إلى فضاء المدينة لاستقبالنا. وعندما دخلنا المدينة مررتا عبر شوارعها التي اكتظت بالآهالي الذين راوحوا يصفقون بحرارة تعبيراً عن انتهاجهم بقدمنا. وسرت حتى بلعنا مازلاً القديمة التي كنا نقيم فيها من قبل

عندما استقرت في الجزائر بذلت كل ما في وسعي لإعادة النظام والأمن إلى مدينة الجزائر. وفي الوقت ذاته أرسلت إلى سان رئيس لكي يحضر عدلتي وسمي إلى الجزائر. فخرج سان رئيس من جيحل في ثلاث وثلاثين سفينة، وعندما كان بهم بالدخول إلى ميناء الجزائر أطلق قذائف المدفعية تعبيراً عن تحيته فرددت عليه التحية بإطلاق قذائف مدفعية من قلعة الجزائر

هذا ما كان يحدث في الجزائر. أما في تلمسان فإن سلطانها الذي أجلسه على عرشها انتهز فرصة خروجي من الجزائر، ليقوم بإلغاء السكة التي كان يسكها باسم سلطاننا المعظم، ويقوم بضرب العملة باسمه. فكتب إليه -بعد استقرار في الجزائر- أقول له

«عليك أن تضرب النقود باسم خليفة الزمان، وترسل دون



تأخير الضرائب المتأخرة إلى الجزائر، والتي بلغت تسعة وثلاثين ألف دوق. إن إلغاء النقود التي كانت تضرب باسم خليفة رسول الله ﷺ جرم عظيم. عليك أن تجدد إيمانك في الحال وإلا فلن سأتخوك من الأرض مثلما فعلت بابن القاضي»

عندما استلم الملك عبد الله رسالتي قام بتمزيقها ورميها. فقررت على إثر ذلك مساندة ابنه الأمير محمد، الذي كان قد خرج على أبيه رغبة في خلعه والجلوس على عرش تلمسان فلجأ إلى الحال في ألبي فارس.

أعددت جيشاً وسرت به إلى تلمسان. فلحق بنا في الطريق الأمير محمد. فقبل يدي وانضم إلى جيشي. في هذا الوقت كان الملك عبد الله قد خرج من تلمسان وسار إلينا فالتقيت في مارونة حيث اشتبكت قواتنا هناك. تمكن جيشي من تشتيت قوات الملك عبد الله وأسرته فأمرت على الفور بضرب عنقه وألست ابنه الخليفة السلطانية وأجلسته على عرش تلمسان.

أمرت أربعمائة بحار بمرافقة الأمير الجديد إلى تلمسان فقام هذا الأخير فور وصوله بدفع الضرائب المتأخرة، والتي كانت تقدر بتسعين ألف دوق سلمها إلى بحارتي<sup>(1)</sup>، وهم

(1) يوجد اختلاف في تقدير الضرائب المتأخرة، فمرة يذكر أنها 39000

بدورهم قاموا بإرسالها إلى الجزائر. لقد كان أهالي تلمسان سعداء جداً بأمرهم الجديد.

في هذه الأثناء تمكن بحارتي من القبض على فرحات ابن أخي ابن القاضي وأحضروه إلي. فطلب العفو معتذراً بأنه لم تكن له صلة بتمرد عمه الشيخ ابن القاضي، وتعهّد بأن يدفع عشرين ألف دوق وأنه سيكون خادماً وفيّاً لي فعقدت معه معاهدة الترم فيها بأنه لا ينزل من جبال القنائل دور إدي، وأن يدفع سنوياً عشرة آلاف دينار وألف جمل وألف بقرة وألفي شاة ومائة بعلة وعشرين فرساً.

عندما رجعت إلى الجزائر قسمت أسطولي إلى وحدات صغيرة، وأرسلتها للغزو تحت إمرة سان رئيس. في الليلة السابقة لخروجها إلى الغزو رأيت في المنام رؤيا صالحة جعلتني أشعر بأنها ستكون عزوة مباركة. وبالمعل عادت ست سفني تحيّر ست سفن تم غنمها من الكفار كانت إحداها مشحونة بالبرود والرصاص وقذائف المدفع، إضافة إلى ستين قذيفة من البرونز. شعرت سرور عارم لهذه الغنائم لأننا كنا في حاجة إليها

دوقه، أو مرة يذكر أنها 90000 دوقه، فلعنوها سهو منه، أو توجد صراتب أخرى قد أضيفت للصراتب الأولى!

أما السفينة الثانية فقد كانت مشحونة بالنفط والقطران والأعمدة والألواح. وأما الثالثة فكانت تحمل الريتون، وريت الريتون والحن والعسل. وأما الرابعة فكانت مشحونة بالسكر بينما كانت الاثنتين الأخريين تحملان أموالا نفيسة.

عاد الأسطول الأول إلى الجزائر مشحونا بالعنائم أكثر من غيره من الأساطيل الأخرى. وفصلا عن هذا فإن أتي سفينة من سفن الخمسة وثلاثين لم تصب بأذى. فالحمد لله حمدا كثيرا على فضله.

كان الإسبان قد شيّدوا قلعة حصينة على أرض صخرية تدعى. البنيون Penon تقع في عرض البحر على مسافة ثلاثمائة متر من مرسى الجزائر. كانت القلعة قد أسدت حراستها إلى مئات الجنود المتحصنين بها مروّدين بمئات المدافع، يقودهم سيل عجوز يدعى دون مارتين دي فيرغاس، عرف قديما بأنه أحد القباطنة المشهورين. لم يكن باستطاعة الإسبان أن يجعلوا في القلعة عددا كبيرا من الجنود نظرا لضيق مساحتها. لم يكن باستطاعة هؤلاء الجنود أن ينزلوا إلى البر. سحى الماء الذي يشربونه كانوا يأتون به من جزر البليار.

قديما كان الإسبان يمحطون مرسى الجزائر بقذائفهم، فضطر أهالي المدينة إلى الخضوع لهم وقبول ما يُمْلَوْنَهُ عليهم. أما الآن فلم يعودوا يفعلون ذلك بسبب خوفهم من. إلا أن

كنا نرى ترك هذه الصخرة في يد الإسبان أمرا غير وجيه. فاقترح على قائد القعدة الإسباني دون مارتين تسليم القلعة والاستحبات منها دون أن يصابوا بأذى فرفض ما عرضته عليه. عند ذلك شرعت في قصف القلعة بمدافع على مدى عشرين يوما ليلا ونهارا إلى أن تمكنت من افتتاحها. وبعد معركة كبيرة أعس دون مارتين مع سبعائة من رجاله استسلامهم.



## وضع كافر في فوهة المدفع وقذفه في البحر !

عندما كانت القلعة في يد الإسماعيليين كانوا يقومون بقصف المآذن عندما يسمعون الأذان. لقد كانوا يفعلون ذلك فقط من باب التسلية لكننا عندما استقرينا في الجزائر توقعوا عن فعلهم الشيع خوفنا. فحربوا لهوات هذه التسلية التي كانوا يقومون بها.

ولما قمنا بالاستيلاء على القلعة جيء إلي بقائد المدفعية الذي كان قد دمر العديد من المآذن وقتل كثيرا من المؤذنين عندما كانوا يرفعون أصواتهم بالأذان، فقلت له.

«أيها الكافر . أنت رام ماهر . لقد كنت تدمر المنارة بقذيفة واحدة . انظر الآن كيف يكون الرمي الحقيقي !»

ثم أمرت بوضع الكافر في فوهة مدفع وأمرت بقذفه في البحر. وضربت عنق مساعده مع عشرة من جنود المدفعية، أما الساقون فقد أمرت بإلقائهم في الرنازين.

لم تكن لنا حاجة إلى هذه القلعة. فقامت بتلقيم الصخرة وتفجيرها. وبعد ذلك جمعت ثلاثين ألف أسير كافر كانوا يقبعون في السجون فاستخدمتهم في جمع صخور القلعة لبناء كسر أمواج يربط بين القبة والميناء. وهذا الشكل تمكنا من بناء ميناء محمي وحيل لمدينة الجزائر.

أثار استيلائي على القلعة سخط الملك كارلوس وصرح عنق الرسول الذي حمل إليه الخبر قائلا:

«إن الاستيلاء على القلاع من أعمال الملوك العظام من أمثالي. كيف تجرأ لصر من لصوص البحر مثل بربروس على أخذ قلعتي؟ في الوقت الذي أسرت فيه ملك فرنسا وألقيت به في إحدى زنازين مدريد لم أستطع أن أتصدي لقرصان كهذا؟! بالتأكيد أن السبب في ذلك يرجع إلى عجز قادتي في البر والبحر. لقد مرّختم وجهي في التراب.. هيا اخرجوا عني !»

كان من عاداتي أن أدعو صباط الكفار والقباطة والولالة والرهبان والفنانين الذين وقعوا في الأسر للمثول بين يدي وأتبادل معهم أطراف الحديث. ولم أكن أطرح عليهم الأسئلة لانتزع المعلومات منهم، بل كنت أتحدث معهم مثلي يتحدث الصديق إلى صديقه. هذه الطريقة كنت أحصل منهم على معلومات مهمة جدا. بل كنت أقف على أسرار القصور التي لا تعرف حتى في أوروبا والحقيقة التي يجب أن أشيد بها هنا هو أنه كان لي في كل بلدان البحر المتوسط جواسيس تابعين لي إلا أن الجلوس مع الأسير والتحدث معه أفيد في الحصول على المعلومات. فما قاله الملك كارلوس عندما بلغه استيلائي على «البنين» توصلت إليها هذه الطريقة. أي عن طريق التحوار مع الأسرى.

كما أني علمت من إحدى الأسرى بأن الملك كارلوس هو الآن في برشلونة وقد قرر التوجه إلى جنوة. لقد كانت حصة مثل الكثير من الممالك الأوربية تابعة للملك كارلوس، كما كان أكبر أميرالاته المدعو أندريا دوريا ANDREA DORIA من جنوة.

بعد أن قمت بتدمير القلعة وإزالة كل أثر لصخرة «النيون» جاء أسطول إسباني صغير يحمل المؤونة والتجهيزات العسكرية للجنود الإسبان. لم يكن لدى قاطنته علم باستيلائنا على القلعة. وعندما اقتربت القطع الإسبانية ولم تر القلعة ظنت أنها صلت طريقها. وبينما هي تحاول معرفة طريقها إذا بخمس عشرة سفينة من سفني تحيط بها من كل جانب أمام أعين الأهالي الذين كانوا يشاهدون ذلك. قصيا على معظم من كان في السفن، بينما استسلم ثلاثمائة وخمسة وثلاثين منهم، حيث تم إرسالهم إلى السجن. تركت هذه الحادثة انطبعا بأن السفن الإسبانية لم يعد بإمكانها أن تقترب من سواحل الجزائر.

في هذه الأثناء مرص كبير قباطنتي مسان رئيس فسلمت القيادة لأيدين رئيس AYDIN REIS كان أيدين أكثر دراية بأعمال البحر وأكثر شجاعة من مسان رئيس. دعوته ذات يوم وقت له:

«ولدي أيدين، في هذه السنة سوف تخرج أنت للغزو في غرب البحر المتوسط. عليك أن تمضي إلى أن تتوغل في مضيق

سبته، وفي أثناء عودتك قم باحتلال سواحل إسبانيا دون أن تدع لهم أية فرصة للتبل منك. ثم احمل في سفنك من تقدر على حمله من إخواننا المسلمين اللاجئين إلى جبال غرناطة، فأت بهم سالمين إلى الجزائر. لنكن بركة دعائي تحطك في غزوك فلا تقصر في الأخذ بالأسباب».

«على الرأس والعين يا باشا» هكذا قال أيدين ثم ودعني وانصرف.

غادر أيدين رئيس مرسى الجزائر في عشرة سفن وتوغل في غرب البحر كما أمرته حتى بلغ مصيق سبته. فصادف في طريقه خمس قطع بحرية عملاقة من نوع قادرغة. اشتك مع بحارتها في معركة كبيرة انتهت باستيلائه عليها جميعا ثم قام بشحنها بالبحارة الأتراك وإرسالها إلى الجزائر، في اليوم الحادي عشر لخروجهم من الجزائر كانت السفن الخمسة راسية في ميناء الجزائر. سررت لذلك كثيرا لأنها كانت سفنا حربية في غاية الجودة.

ومن جهة أخرى استمر أيدين رئيس في الإغارة على المدن والبلدات المطلة على الساحل الجنوبي لإسبانيا وقصفها بالمدفع،

(1) عرف فيما بعد بمصيق جبل طارق.

وأستمر في أسر من يقع في يديه من الإسبان. كما كان يحمل كل من يعثر عليه من المسلمين في سفينه، حتى لم يبق في سفينه موضع قدم فارغ

عندما علم الملك الإسباني كارلوس بأن آيدين رئيس قد همل في سفينه آلاف من المسلمين أمر أكر أميرالاته المدعو بورتونديو PORTONDO أن يقطع طريق العودة على آيدين رئيس. ووعدته بمكافأة قدرها عشرة آلاف دوقه إن نجح في مهمته هذه.

اعترض بورتونديو بأسطول ضخم أسطول آيدين رئيس في أحد سواحل إسبانيا. فتشاور آيدين رئيس مع قوزداغلي Gözdağlı صالح رئيس -الذي كان أحد رؤساء البحر المراقين له- في كيفية التصدي للأسطول الإسباني. فتوصلا إلى قناعة بأنه لكي يتمكنوا من القيام بإدارة المعركة بمعالية كبيرة، عليهم أن يرلوا المهاجرين الأندلسيين في الساحل. وعندما يفرغوا من أمر الإسبان يرجعوا إليهم ويقوموا بحملهم إلى الخرائر.

عندما علم الأندلسيون بهذا القرار أصيبوا بالهلع، وتعالى أصواتهم بالبكاء والحسب، ورفضوا أن ينزلوا من السفن. لقد كان أكثرهم من النساء والأطفال. فاصطر آيدين رئيس وصالح رئيس إلى إجبارهم على النزول. لقد كان وجودهم في السفن أثناء المعركة محفوفا بمخاطر كبيرة فصلا عن كونهم يعوقون

البحر عن القتال لانشغالهم بحمايتهم

اقتربت سفن الأميرال بورتونديو كثيرا، فعاجلهم آيدين رئيس وصالح رئيس بهجوم مباغت وسريع. واشتبكا معهم في معركة شرسة انتهت بالاستيلاء على سبع سفن إسبانية عملاقة، وقتل بورتونديو الذي كان أذاق المسلمين ويلات التعذيب والهوان كما قتل جميع من كان معه من القباطنة.

تمكن آيدين رئيس من تحقيق انتصار حاسم بمساعدة صالح رئيس الذي كان اشتهر بدهائه الخارق حتى وصف بأنه يحرر الثعلب من حجره من فرط دهائه. ومنذ هذه المعركة أطلق المسيحيون لقب «الشيطان الضارب» و«الكافر الضارب» على الأتراك

وإضافة إلى عثم السفن الإسبانية لعملاقة، تم أسر ثلاثمائة وخمسة وسبعين كافرا إسبانيا. وأما بقية الخوود فقد تم القضاء عليهم جميعا في المعركة. كما تم إنقاذ الأسرى المسلمين الذين كانوا مقيدين في المحاديف. أما الأندلسيون الذين تم إنزالهم من السفن فقد وقفوا على الساحل يراقبون سير المعركة على أحر من الحمر. حتى إذا انتهت المعركة تم حملهم من جديد في السفن ونقلوا إلى الخرائر

خلال هذه الفترة توفي سنان رئيس، فدعوت آيدين رئيس بعد وفاته بأيام قلائل، مدخل علي وقبيل يدي فقامت بتعيينه



قائده للأسطول في مكان المرحوم سنان رئيس. كما عيت صالح رئيس نائباً له.

عزمت على إرسال آيدين رئيس إلى إسطنبول. نظراً لقيادته لبعض وحدات الأسطول العثماني عندما كان في إسطنبول. وكان السلطان بايريد الثاني رحمه الله - قد أرسله إلى مصر ليكون في خدمة السلطان المملوكي. فقدم من هناك إلى الجزائر ولازم أخيه عروج رئيس.

فبيل إرساله إلى إسطنبول فمت بإعداد ثلاث سفن من نوع قدرعة وجهزتها بكل ما تحتاج إليه. كما فمت بتزيين سوارى السفينة التي تربطها بالشرعة بذهب جنوة، حتى كانت تبدو من بعيد وهي تلمع عندما تضربها أشعة الشمس. فعلا كانت تبدو فائقة الحسن بحيث يعجز اللسان عن وصفها كما جعلت في كل سفينة منها مائتا بحار، واحترت لها أقوى الجذافين. كما اصطفت ثلاثمائة أسير كان آيدين رئيس سيقدمهم هدية إلى ملك البر والبحر، السلطان سليمان خان.

وعندما أكمل البحارة استعدادهم جاءوا وقبلوا يدي ثم غادروا ميناء الجزائر على أصوات المدافع.

## آيدين رئيس بين يدي السلطان العظيم

دخل آيدين رئيس ميناء إسطنبول في ساعة مباركة وذوت المدافع محيية السلطان. وعندما رست السفن نزل منها ثلاثمائة أسير في حبل زاهية كل منهم يحمل أنواعاً شتى من الخشام. بين تدفق أهالي إسطنبول على الشوارع والطرق المؤدية إلى الميناء للتفرح على أسطول الجزائر.

تشرف آيدين رئيس مع سحر آخر بالمشول بين يدي السلطان المعظم سليمان خان. وسلمه رسالتي التي بعثتها إليه فتكرم بقراءتها بنفسه. وعندما فرغ شكر آيدين رئيس وأثنى عليه. وفي نهاية المقابلة أمر السلطان لأدين رئيس بأربعمائة دينار، وللبحار المرافق له ثلاثمائة. كما أمر سائتي دينار لتسعة من قباطتي، وبمائة دينار لأئمة السفن، وبخمسين دينار لكل ضابط من ضباطي. كما أهدي لآيدين رئيس سيما مرصعاً وخلاعة سلطانية ومنتظراً حرياً. أما البحارة فقد أمر بإنزاهم بدار الضيافة بمصنع بناء السفن حيث تم إكرامهم هناك.

أعطى السلطان تعليماته لآيدين رئيس ثم قام هذا الأخير بزيارة جميع الوزراء وكبار القضاة.

مكث آيدين رئيس شهراً كاملاً في إسطنبول. وفي نهاية الزيارة مثل بين يدي السلطان مرة أخرى. فسلمه سيفاً وخنجراً

مرصعين، وحلعة مؤشاة بحیوط ذهبية وراية منسوجة بالذهب، ونیشانین مرصعين بهاسة قيمة وأمره أن يسلمها إلي.

وإضافة إلى ذلك أمر بأن تسلم له سفينة من نوع قادرغة ذات عشرين مقعدا، قام بتجهيزها بغذائف قد تم صهرها قبل وقت قصير. كما شحنت مستودعات السفينة وممراتها - بما في ذلك - قُمرة القيادة بمختلف المعدات الحربية، كالأعمدة والأشرعة والقطران والنفط والخيال العليظة التي تشد بها السفن وغيرها. فلم يبق في ممرات السفينة موضع قدم لم يتم شحنه بشيء يمكن أنه تكون في حاجة إليه لقد كانت المعدات من الكثرة بحيث جعلت السفن العظيمة تغوص في مياه البحر من ثقلها

وعندما كان آيدين رئيس بهم معادرة الحضرة السلطانية أهدى له السلطان بيشانا محلى بالخواهر. فعادر آيدين رئيس القصر في غاية السرور مهاتين السفينتين وما تحمله من معدات فصلا عن سروره العظيم بإكرام السلطان له.

نزل السلطان إلى قصره الساحلي المطل على ساحل سراي بورنو SARAY BORNU لتفرج على أسطولي حيث كانت السفن تمر بمحاذاة القصر مطلقة قذائف مدفعها بحية السلطان قبل أن تتوغل في عرض البحر عائدة إلى الجزائر

عمر آيدين رئيس سواحل أولونيا AVLONYA مروراً بساحل

دراش<sup>(1)</sup> حتى بلغ خليج السدقية وبعد أن أمضى بعض الوقت هناك عادر الخليج مروراً بصقيلة حتى بلغ جزر البليز، فأغار عليها وغنم غنائم كثيرة وعددا كبيرا من الأسرى من جزيرة ميورقة MAYORKA، ثم فقل راجعا إلى الجزائر.

لقد خرج آيدين رئيس من الجزائر عشرة سفن من نوع قادرغة فعاد إليها بثلاث سفن هدية من السلطان بالإضافة إلى خمس عشرة سفينة صغيرة أخرى كان قد غنمها في عرواته التي قام بها في أثناء عودته إلى الجزائر، فبلغ أسطوله الذي رجع به ثمانية وعشرين قطعة لقد كان سرورن عظيما عندما رأينا آيدين رئيس يدخل ميناء الجزائر.

هداء وقد وحننا السفن التي غنمها آيدين رئيس مشحونة بكميات كبيرة من القهوة والأرز والحرير والقماش والمرايا والمسدسات والبنادق

استقبلت آيدين رئيس فسلمني كتاب السلطان المعظم الذي كان ملفوفا في عدة معطاة بقطعة قماش صغيرة من القصيدة. أخذتها بإجلال كبير وقبلتها ثلاثا ووضعها على رأسي تعظيما لسلطان. ثم فتحتها وقرأتها وأنا قائم على قدمي قدامها:

(1) ساحل ألباني يقع على بحر الأدرياتيك

«يا بلرناي الجزائر خير الدين باشا. لقد بلغت أخباركم عتبنا السلطانية وأحطنا علما بأحوالكم وقبلنا الثلاثمائة أسير الذين أهديتموهم لنا. وأدعو الله أن ينصرك أنت وإخوانك المجاهدين وأن يبصر وحوهكم في الدنيا والآخرة وقد بعث إليك بالمعدات الحربية لكي تتصدى لأعدائنا كهار إسبانيا فلا تدع لهم عينا تطرف. ضع النيشان الذي بعثته لك في عمامتك وثبت رايته في أعلى شراع سفيتك. وأما رايته البيضاء الموشاة بالذهب فقم بثبيتها في موضع يحمل معنى شرفك وعزتك بحيث لا تقع على الأرض».

قامت بثبيت الراية السلطانية الموشاة في موضع مرتفع عند باب باشوية الجزائر فكان كل يوم عند غروب الشمس يقوم بالمراسيم السلطانية فرل الراية على أصوات الموسيقى العسكرية العثمانية ثم نحفظها في اللقفة. وفي اليوم التالي يقوم برفعها عند شروق الشمس على وقع الموسيقى العسكرية. وأما عند خروجنا للجزو فقد كنت أقوم بثبيت الراية السلطانية في أعلى شراع السفينة.

في هذه السنة قامت بجمع يتامى وأبناء وبنات فقراء مدينة الجزائر وصواحيها اللاتي بلغن سن الزواج. فقامت بتختين الأطفال وترويح البنات، كما أعطيت كل واحد منهم ما يحتاج إليه من المال. وأمرت بإعطاء مساكن لمن لا بيوت لهم وتشغيل

العاطلين عن العمل منهم.

لقد كنت موقنا بأن الله يكافئ عن كل إحسان نقوم به بأضعاف ما نبدله. لقد رأيت هذا وعاشته بنفسه طيلة حياتي فكلما أنفقت من ثروتي شيئا كان الله يعجل بأضعاف مضاعمة له أضعافه في سبيله.



قاعة الاستقبال الملكي بقصر طوب كاي سراي

## لقد جعلتموني مسخرة بين الملوك !!

«لقد جعلتموني مسخرة بين الملوك، فليس فيكم من يستطيع التصدي لبربروس.»

هذه العبارات غمّت ملك إسبانيا قاده وأميرالاته..

هذا جنّا الأميرال الجنوي أندريا دوريا الذي كان حاضرا في ذلك المجلس على ركبته أمام الملك وهو يقول:

«اطمئن يا مولاي سوف أمضي بسرعة وأحضر هذا المدعو بربروس عدو المسيحية مقيدا بالسلاسل بين يديك، وحينها لك أن تأمر بقتله لكي تلحق روحه الخبيثة بروح أخيه عزّوج المستقرة في قعر جهنم.»

عندما سمع الملك هذه الكلمات تهلّل وجهه، لقد جعلته ثقته الكبيرة في أندريا دوريا يعتقد بأن هذا الجنوي يمكنه أن يفعل شيئا ما.

لعمري ما جرى في هذا المجلس على جناح السرعة. لقد كان حواسيسي المنتشرين في شتى المدن الأوربية يحيطونني علما بكل صغيرة وكبيرة تحدث، ويأراء هذا كان الجواسيس الذين يعملون لحساب النصارى مشين في الجزائر وغيرها من المدن الإسلامية. وهم أيضا كانوا يزودونهم بكافة المعلومات التي يحتاجون إليها.

وحتى لا تتسرب أية أخبار من الجزائر كنت أتصرف بشكل طبيعي وفي غاية الحذر. إلا أنه كان في حكم المستحيل مع تسرب الأبحار المتعلقة بتحركات العسكرية التي تجري في مرسى الجزائر الذي كان يعد من أكثر المراسي التجارية الشديدة في العالم

أخرج دوريا على أمل أن يتمكن من أخذي أسيرا إلى مكانه لقد وضع الملك تحت تصرفه عشرين سفينة إسبانية وعشرة أخرى جنوية كلها من نوع قادروعة. كانت تلك السفن العملاقة أكبر من السفن التي كنا نستخدمها نحن، إلا أن سفننا كانت أكثر حفة وأكثر فعالية من سفنهم

في هذه الأثناء كان لديّ بالجزائر خمس وثلاثين سفينة من نوع قادروعة جعلت عليها البحار قورد أوغلو مصلح الدين رئيس وأمرته بأن يكون على أهبة الاستعداد لحوض المعركة القادمة.

علمت بوصول دوريا إلى جزيرة ميورقة قداما إليها من جرد الباليار. لكن هذا الأخير بالرغم من تعهده للملك بأنه سوف يقوم بأسري إلا أنه لم يجرؤ على غزو الجزائر فأغدر على ميناء شرشال الذي لم يكن يحرسه سوى بضعة مئات من البحارة

عندما رأى البحارة أسطول دوريا يقترب من شرشال قاموا بالتحصن في القلعة بعد إحكام إغلاقها. ولما كان رجاله مهمكين في تهب ما وحدوه في المرسى والمدينة انتهر البحارة

هذه الفرصة وفتحوا أبواب القلعة وقاموا بهجوم خاطف على رجال دوريا. لم يكن دوريا يتوقع هذه المفاجأة لأنه كان يظن بأن الخوف هو الذي دفع الأتراك إلى الاجتهاء بالقلعة.

تفرق البحارة في أزقة رشواوع المدينة عاملين السيف في رقاب الكفار مستعدين من فرصة تفرقهم وعجزهم عن الاجتماع في معسكر واحد. وعن هذا النحو قتل ثلث مئمة منهم بعدما لاذ الآخرون بالفرار إلى سفنهم ينشدون النجاة. بين وقع ألف وسبعمائة منهم في الأسر.

عندما بلغني هجوم دوريا على شرشال خرجت إليه في أربعين قطعة. إلا أنه ما إن علم بحروجي حتى عاد شرشال ولم أدرك سوى أسطول صغير تابع له تمكنت من الاستيلاء عليه بعد معركة عنيفة.

عندما كانت المعركة على أشدها قام الأسرى المسلمون المقيدون بالسلاسل في السفن الإنسانية يكسر أغلالهم وهم يرددون «يا الله».

انجلى المعركة عن استشهاد أكثر من ثلاثمائة شهيد من رجالنا بينما تمكنا من الاستيلاء على الأسطول بأكمله.

بلغت سفينتي ستين قطعة بما فيها تلك التي استرلينا عليها من العدو. قدمت بها جميعا إلى مرسى شرشال. كانت سبع قطع من أسطولي قد قدم بها البحر سنان رئيس من حربة.

وفي هذه الأثناء أحصيت عدد الأسرى المسلمين الذين حررهم فبلغ عددهم ألفين ومائتي أمير أطلقت سراحهم جميعا. فاختار قسم منهم أن يدخل في خدمتي بينما أعطيت الآخرين ما يحتاجون إليه من مال وأرسلتهم إلى بلادهم.

أما عدد الأسرى الذين أسرفناهم من سفن الكفر فقد بلغ ألف وتسعمائة أسير من بينهم أسير من الإفرتج برتبة «أميرال» كما كان من بينهم قبطان كبير آخر. لقد أمرت بربطهم جميعا بمجادف السفن لكي يعملوا في دفعها خلال أسرىهم.

أما أنا فلم أمكث في شرشال سوى بضع ساعات قبل أن أغادوها متوجهة إلى الجزائر التي بدعتها بعد ثلاثة أيام من مغادرتي.



نعودج من المعارك البحرية للأسطول العثماني ق 16



## أيدين رئيس في المحيط الأطلسي

كنت أريد أسر أندريا دوريا، ولتحقيق ذلك جعلت أيدين رئيس على رأس أسطول كبير وأمرته أن يتعقب أثر دوريا، فخرج أيدين رئيس بأسطوله حتى بلغ مينة، وتوغل في سواحل العدو إلى أن أتى جبل طارق، ومن هناك عبره إلى المحيط الأطلسي، إلا أنه لم يقف على أثر للعدو.

وعلى أثر ذلك قفل راجعا إلى الجزائر، فأغار في أثناء عودته على حزر السليار وقصف جزيرة ميورقة والسواحل الإسبانية المطللة على البحر المتوسط. فتمكن هذه الحملات من أسر ثلاثة آلاف كافر حملهم جميعا في سفنه، وتوغل في أرض العدو حتى كان على مقربة من ميناء برشلونة.

وعلى مسافة قريبة من برشلونة كان يوجد دير كبير تعود ملكه إسبانيا على زيارته في كل سنة، فقام أيدين رئيس بالإغارة على هذا الدير وأسر ثمانين راهبا واستولى على ستة وثلاثين صندوقا من حزان الدير، لقد كانت القناديل الفضية التي استولى عليها وحدها تحوي على خمسة وعشرين كيلا<sup>(1)</sup> من الفضة.

(1) في النسخة التركية ورد أن القناديل الفضية كانت تزن 25 قطارا

كان هذا الهجوم يمثل صدمة قاسية لكرياء الملك كارلوس أرغمننا به أنه في التراب، فقد بلغ عدد السفن التي استولى عليها أيدين رئيس في هذه الغارة خمسا وخمسين قطعة ما بين سفينة كبيرة وأخرى صغيرة، قام بسحبها جميعا ودخل بها ميناء الجزائر. وهذه الهجمات المضفرة تكون قد أعطينا الجواب اللاتق لدوريا على غارته التي شنّها على شرشال.

صارت مدينة الجزائر بهذه الغنائم نموذجا يضاهي أسواق بلاد الهند في رخصها. إذ كان التجار يشترون تلك البضائع بدرهم من الجزائر ويبيعونه بعشرة دراهم حتى أثروا من ذلك ثراء فاحشا.

بلغ عدد الأسرى المحبوسين في الزنازين ستة عشر ألف أسير عدا الذين تم تكليفهم بالجند في السفن أو الذين تم تخصيصهم للخدمة في البيوت.

من هؤلاء الأسرى اخترت خمسمائة من أحسن الجند الذين وقررت إرسائهم للعمل في الأسطول العثماني بإسطنبول.

وقد سبق وأن أشرنا في موضع سابق من هذا الكتاب بأن القنطار العثماني يزن: 56.452 كغ. انظر: *Osmanlı Tarihi Terimleri Sözlüğü*, s 214

ونذبت لهذه المهمة أيدين رئيس الذي قام بنقلهم في خمس عشرة سفينة من نوع قنطرة أبحر بها إلى إسطنبول.

وصل أيدين رئيس إلى إسطنبول في اليوم السابع والعشرين من خروجه من الجزائر ومثل بين يدي سلطان الدنيا سليمان خان الذي تكرم بقراءة رسالتي نفسه.

قام أيدين رئيس بزيارة الوزراء وغيرهم من أركان الدولة وسلم لهم جميعا الهدايا التي بعثتها إليهم. فحظي منهم بتقدير وإكرام كبيرين. أما السلطان سليمان خان القانوني فإنه قد طلب أيدين رئيس مرة أخرى للمثول بين يديه وحاطبه قنطرة.

«اسمع أيها الرئيس، لقد وقعت جميع الأعمال التي قام بها بايلرباي الجزائر خير الدين مني موقع القول. لأحل ذلك سوف أمنحك الآن خمس قطع بحرية من نوع قنطرة تقوم بتسليمها إليه، كما أمرت قبطان باشا " أن يزودكم بكل ما تحتاجون إليه من قذائف وآلات الحرب وغير ذلك من التجهيزات خصوصا قذائف المدافع البحرية خذ منها ما تقدر على حمله في سفنكم وسوف أرسل معكم عددا من مهندسي المدافع يكونون في خدمتكم، يجب أن يكون أسطولنا في الجزائر في عاية القوة وفي

(1) المقصود به هنا قائد الأسطول العثماني والذي يدعى أيضا قبطان

دارب

منتهى الجاهزية للقتال فقد بلغني أن الملك كارلوس يحمل نوايا في غاية الخبث نحو الجزائر، فلما كنتم أن تغفلوا عن أخذ التدابير اللازمة أو تغفلوا عما يدبره لكم هناك».

وصل أيدين رئيس إلى الجزائر في اليوم الحادي والأربعين من معدرته لإسطنبول، فقد انطلق بخمس عشرة سفينة من نوع قنطرة، معها خمس قطع كان هدية من السلطان سليمان خان، كما استولى في طريق عودته على سبع سفن أعارها جميعا على عدد من مدن الكفار فتمكن خلال غزواته تلك من أسر سبعمائة أسير.

سلم لي أيدين رئيس كتاب السلطان مختوما بختم آل عثمان الأبيض، فقامت بتفصيل العلية التي كانت تحفظ فيها الرسالة ثلاثة مرات ووضعتها على رأسي تعبيرا عن تعظيمي للسلطان، ثم أخرجت منها الرسالة وقرأتها بعناية كبيرة حتى حفظت أوامر مولانا السلطان عن ظهر قلب، ولما فرغت من ذلك أخذت من أيدين رئيس هدايا مولانا السلطان التي كانت عبارة عن خدعة سلطانية مصنوعة من الفرو والشمين ومساحة ذهبية وسيفا مرصعا بالجواهر بالإنضاهة إلى الراية العثمانية.

في هذه الأثناء كان الملك كارلوس مشغولا عنا، فقد أرسل إليه أخوه الملك فرناندو من فيسا يطلب المدد. في هذا الوقت كان فيه مولانا السلطان سليمان خان يؤكد على عزاة الحدود في المحر

أن لا يدعوا الملك فرناندو يلتقط أنفاسه بمتابعة العزو لبلاده.  
أدرك الملك كارلوس بأنه لا قبل له بمواجهتها فقام بتحريض  
ملك تلمسان على الثورة علينا مرسلًا إليه أموالًا كثيرة وأعدا  
إياه بجعله سلطانًا على الجزائر. وبما أن هذا السلطان كان يعتبر  
نفسه الملك الشرعي فقد كان هو الآخر يوزع وعوده على من  
يحيطون به.

أم الملك كارلوس فإنه أدرك من خلال تجاربه الكثيرة أن  
البلاد التي لم يتمكن من احتلالها أو إخضاعها لنموه فإن أقصر  
طريق للاستيلاء عليها هو أن يغدق الأموال على من يلوذ به  
من الخلفاء والطامعين من الزعماء والملوك الصغار.

صدّق سلطان تلمسان هذه الوعود وأعلن عصيانه. عند  
ذلك أمرت علي محمد رئيس بأن يخرج للغزو في البحر، بينما  
سرت أنا إلى تلمسان حتى أتيت هذه البلدة الواسعة التي كانت  
تقع على حدود مملكة فاس.

لم أجد سوى مقاومة صغيرة لأذ بعدها سلطان تلمسان  
بالفرار وأرسل إليّ بعد ذلك العلماء يطلب العفو. فقلت لهم:  
«سأعفو عنه عندما يجيء بنفسه معتذرًا».

فجاء السلطان المتمرد ودفع إليّ الخراج المتأخر والذي كان  
مقدراه مائة وعشرة آلاف دينار، ثم جثا على ركبتيه وتشبث  
بقدمي!! فقلت له

«دع عنك هذا أيها الكافر وجدّد إيمانك . لقد قمت بموالة  
أكبر أعداء ديننا والخروج عليّ وأنت تعلم بأن أمثلي خليفة  
المسلمين وسلطان الدنيا فسللت سيفك في وجهي!!»  
أعلن سلطان تلمسان توبته بتلاوة الشهادتين وحدد دخوله  
في الإسلام كما أعاد العقد على زوجاته اللاتي كان قد فسد نكاحه  
من بسب ارتداده عن الإسلام.

عندما كنت في تلمسان صادف علي محمد رئيس بأسطوله  
المكوّن من أربعين قطعة أسطولًا إسبانيًا مكونًا من خمس وثلاثين  
سفينة من نوع قاذرة. وسرعان ما اشتبك معها في عرض  
البحر. وما إن حمي الوطيس حتى أعلنت تسع وعشرين سفينة  
إسبانية استسلامها له؛ بينما لادت الستة الباقية بالفرار.

ولما بلغ الانتصار الساحق الذي حققه الأتراك على أسطول  
الإسباني مسامح الملك الإسباني المقيم في برشونة كاد يموت  
من الحزن، وهو الذي لم يكن يقدر على فتح همه من القنوط  
الذي أصابه بعد هزيمته أمام السلطان سليمان خان في ألبانيا.



## أسطولي يخرج في الحملة الحادية والعشرين إلى إسبانيا

عندما بلغت انتصاراتنا مسلمي الأندلس قويت قلوبهم  
وأعدوا الثورة. هرل ثمانون ألفاً ممن كان معتصماً بالجمال وهاجموا  
الإسبان فألحقوا بهم هزائم كبيرة

وما كادت أخبار الثورة تصلني حتى أمرت محمد رئيس  
بالخروج على رأس أسطول مكون من ست وثلاثين سفينة  
لنصرة الثائرين. فشرع محمد رئيس على الفور في إمداد الثوار  
في السواحل الإسبانية

هذه: وكان أسطولي قد قدم حتى هذا التاريخ بوحدة وعشرين  
حملة على إسبانيا، في كل منها كان يقوم بإنقاذ آلاف من المسلمين  
من الرجال والنساء والأطفال من المحارق والسيوف الإسبانية  
ونقلهم إلى سواحل شمال إفريقيا.

كنت أتولى بنصبي قيادة الأسطول في معظم هذه الحملات.  
كما تولى أيدين رئيس ومنان رئيس قيادة الأسطول مرات عديدة،  
فحزاهم الله حيراً على جهادهم

إن كفار إسبانيا لا يشبهون غيرهم من كفار الإفرنج. لقد  
كانوا في غاية الظلم والغرور، متعطشين للدماء كالكلاب  
المسعورة!..

لقد كان سلطان العالم سبيها حان مثل أبيه السلطان سليم  
خان وحده السلطان يزيد حان الثاني لا يتخف عن مساعدة  
مسلمي الأندلس. فظيبت الله ثراهم وأسكتهم فسيح حانه. ويطرا  
لاهتمامه بمسألة المسلمين بالأندلس فقد تلقيت منه العديد من  
لرسائل السلطانية المتعلقة بهذا الموضوع

وذلك يوم وصل إلى الجزائر معوث السلطان سبيها حان  
ابن السلطان سليم حان المدعو: سنان آغا أمرني في رسالة بعث  
بها إلي مولانا السلطان وسلمها إلي فأحدثها وقتلتها ثلاث رجلاً  
للأمر السلطاني ثم فتحها وقرأتها فإذا به يقول لي فيها

«إلى بايلرباي أياالة الجزائر العربية الغاري خير الدين باشا.  
اعلم بأني عازم على غزو ملك إسبانيا. فإذا وصلك كتابي هذا  
فاستخلف رجلاً تعتمد عليه وأقدم علي في إسطنبول. أما إذا لم  
تجد من تعتمد عليه في خلافتك فأعلمني بذلك!..»

ما كدت أقرأ كتاب السلطان حتى قلت لسان شاوش:  
«هذا أمر مولانا.. سوف أتوجه إلى إسطنبول على جناح  
السرعة لكي أتشرف بالمشول بين يديه فأنتظر ماذا يأمر به»

ودون تأخير شرعت أناهب للسفر. فلما بلغت ملك إسبانيا  
دعوة مولانا السلطان لي بالقدوم إلى إسطنبول أصابه الهمع  
وأعطى أوامر صارمة لأمراله الكبير أندريا دوريا بأن يقطع  
طريقي ويحول دون خروجي

كان الوضع يقتضي أن أخرج في أسطول كبير إلى إسطنبول،  
لأنني كنت أتوقع أن أصادف دوريا في عرض البحر. ومن جهة  
أخرى كنت أدرك بأنني لو أنقيت الجزائر في حماية قوة صغيرة  
فإنه من المحتمل أن يثور عشرات آلاف الأسرى. للذين كانوا  
في هذه المدينة.

ولمنع حدوث ذلك دعوت قريبي محمود رئيس الذي كان  
مكلفا بمراقبة هؤلاء الأسرى وأعطيته أوامر صارمة بأن يكون  
في غاية الانتباه لتحركاتهم، وأن يشدد عليهم الحراسة في أثناء  
تفقدتهم.

أرحبنا أسرع سفنتا في ساعة مباركة وعادنا الجزائر  
متوجهين إلى مدينة عرش العالم إسطنبول. كانت ترافقي في  
رحلتي تلك ست وعشرون سفينة قادرة من وحدات أسطولي،  
بينما تركت القطع الأخرى في الجزائر وعرب البحر المتوسط.  
وبعناية المولى سبحانه استوليت في عرض البحر على ثمان عشرة  
سفينة من سفن الكفار فكان من قدرنا أن ندخل إسطنبول بأربع  
وأربعين سفينة.

كان يرافقني في هذه الرحلة ثمانية عشر رئيسا من رؤساء  
البحر، كدعيتهم كانوا قد أطلقوا شهرتهم الآفاق في البحر المتوسط  
فما ك لبسوا بالحويلة الإيطالية التي كانت تابعة للإسكندر  
دون أن تقوم بقصصها أو الإغارة عليها

إن مولانا السلطان كان في حالة حرب مفتوحة مع إسبانيا،  
ولاحل ذلك أعزنا على السواحل العربية لجزيرة سردينيا ثم  
توعلنا شمالا حتى بلغنا مشارف جنوة.

ومن هناك واصلت طريقي محاذيا سواحل إيطاليا حتى  
دخلت ميناء ماسينا المشهور فوجدت أسطولا إسبانيا مكون  
من ثمان عشرة قطعة استوليت عليها جميعا وقمت بربطها بسفني  
وسحبها معي بعد معركة عيفة في عرض البحر. وبهذا النصر  
تحقق حلمي بإدخال السرور إلى قلب سلطاننا العظيم الذي  
كان يريد غزو إسبانيا.

أما أندريا دوريا الذي كان يعتبر نفسه أكبر أميرال كافر فقد  
كان في هذه الأثناء يحوب سواحل المورة وعندما بلغه انتصاري  
في ماسينا أصيب بالدعر الشديد، ولاد بالفرار إلى جرر أيونيا  
AYUNYA. فتعقبته إلى هناك إلا أنني لم أتمكن من إدراكه وأسرته  
ولا أدري في أي جحر احتفى. وبعد فترة لمعي أنه خا إلى جنوة  
أرسلت خمس وعشرون سفينة لمطاردة دوريا فصادت في  
طريقها أسطولا صغيرا للدورب مكونا من سبع قطع استسلمت  
اثنتان منها بعد الاشتباك معها بينما لادت خمس بالفرار

أما أنا فقد خرجت من جرر أيونيا متجها نحو جنوب  
حيث أتيت سواحل جزيرة المورة في هذا الوقت كان كامنكاش  
KAMANKAS أحمد باشا قطان داريا راسيا بقسم من الأسطول



العثماني في ميناء بافاريا الواقع جنوب غرب جزيرة المورة. وما إن تراءى بنا حتى أطلقنا قذائف مدافعنا محيين لبعضنا البعض. فقابلت أحمد باشا وقررنا على إثر ذلك أن نتوجه إلى إسطنبول.

وصلنا إلى إسطنبول في يوم مشمس من أيام الشتاء وبالرغم من برودة الجو إلا أن أهالي إسطنبول المتصفون بالظرافة واللفظ أنوا إلا أن يخرجوا لاستقبالنا. لقد كان عددهم يقارب مائتي ألف شخص.

مضت ساعات ونحن نطلق قذائف مدافعنا تحية لسلطان العظم، وللمدينة التي تحتض عرش العالم، ولأهالي إسطنبول المتصفين بالعلم والظرافة والشرف.

ركبنا زورقا صغيرا وخرجنا إلى الساحل برفقة ثمانية عشر من مشاهير رياس البحر، بالإصافة إلى عدد من البحارة المرافقين لي في أحمل حلة، فسلمت على الأهالي الذين استقبلونا بسرور بالغ وحب عظيم معبرين عن ذلك بتصفيقاتهم الحارة.

كان مائتا أسير يتقدمون موكب الاستعراض، كل منهم يحمل أجمل ما رخرت به قصور أوروبا من التحف المصنوعة من الذهب والمصصة.

ثم تلاهم ثلاثون من نساء الإفرنج. كلهم كانوا من الأميرالات وكدر قادة جيوش أوروبا والولاة والأعيان، بل ومن بينهم أقارب للملك.

وبعد أن مر هؤلاء تبعهم مائتا عبد يحملون على أكتافهم

أكياسا مثقنة بالذهب والمصصة وتبعهم مائتا غلام قد ناءت أعناقهم بالجواهر التي كانوا يتحلون بها، كل منهم يحمل لفائف من القماش المطرز بهيوط الذهب والمصصة.

وخلصهم كانت مائتا جارية تتعقب الموكب، كل منهن قد احتيرت من أجمل حسنات أوروبا. كانت الحواري يرتدين فساتين زاهية من أجود الأقمشة، ويتحدين بأجمل الجواهر الثمينة.

بعد ذلك مرت مائة راحلة مَحْمَلَة بالغنائم، يتبعها قطيع من الحيوانات المادرة التي جلبت من أفريقيا كالزرافات والأسود والفهود وغيرها، يقودها عدد من المروضين الذين يشرفون على رعايتها.

أما أنا فقد كنت أسير خلف الموكب مع رياس البحر وعدد من البحارة المرافقين لنا قد ارتدوا ملابس بسيطة، إلى أن انتهى بنا المسير إلى قصر طوب كاي سراي TOPKAPI SARAYI. كنت أشعر بسعادة بالغة عندما وصلت إلى قصر السلطنة التي تحكم العالم.

وحسبما سمعت ورأيت فإن أهل إسطنبول لم يشاهدوا من قبل استعراضا مثل استعراضنا فخامة وغنى وطرافة وجمالا. أما الحقيقة فالله وحده العالم بها.

في اليوم التالي دعيت أن وثمانية عشر من رياس البحر للمثول بين يدي السلطان سليمان خان. فلما دخلنا عليه قتل كل منا يد السلطان الذي بالغ في الثناء علينا بما لم يحط به أحد من قبل.

## ترقيتي إلى رتبة قبطان داريا

كان استقبال السلطان لنا في غاية المهابة والتعظيم فقد اجتمع مجلس الديوان السلطاني في جلسة خاصة، حضرها كافة الورراء الذين أخذوا أماكنهم في صفين بمحاذاة السلطان. ولم يتخلف عن ذلك سوى المصدر الأعظم مقبول إبراهيم باشا الذي كان متواجدا في حلب إذ أنه كان قد غادر إسطنبول منذ ثمان وستين يوما لغزو إيران

تفضل مولانا السلطان العظيم "تواضعا منه" بقول هدايا التي أتحفته بها وشكرني عليها، وكفائي ورياس البحر المرافقين لي بأن أمر لكل منا بخدمة سلطانية نفيسة لا أذكر منذ عقلت حادثة أدخلت السرور على قلبي تعادل تلك العظة التي شعرت بها عندما احتفى بنا السلطان.

وفي أثناء الاجتماع خاطبني السلطان قائلا:

"اسمع يا باشا... أريد أن أجعلك قبطان داريا لتتولى إدارة أسطولنا السلطاني وقيادته في حروبك المظفرة ولتعلم بأنني لن أنزع منك ولاية الحزائر بل ستحتفظ بها بصفتك بيلربايا عليها، إلا أنه يتعين عليك أن تختار من تراه مناسبا لإدارتها

(1) أي أميرا على جميع أمراتها

نيابة عنك والإشراف عليها باسمك. ولكي تتمكن من ترتيب الأمور المتعلقة بهذين المنصبين عليك أن تقابل وزيرنا الأعظم المعسكر في حلب، فعجل بامتطاء فرسك والحق به. وعندما ترجع سوف نتقابل من جديد.

وبعد أن انفض الاجتماع حلا في السلطان سليمان خان وأعلمني بأنه يريد غزو إسبانيا، ولما أتى على ذكر أندريا دوريا لم أقمالك نفسي حتى قلت:

"يا مولاي إن هذا الكلب المدعو دوريا لا يستحق أن تنفوه شفئك المباركتان باسمه!!"

ثم لم ألبث أن أدركت خطئي بتجاوزي لحدود الأدب بحضرة السلطان فخرجت لذلك كثيرا. ذلك لأنه لم يكن أحد يقدر أن يتكلم بهذا الأسلوب بحضرة السلطان العظيم.

كان السلطان سليمان خان في غاية اللبقة والأدب. فما كاد يسمع ما قلت عن دوريا حتى ابتسم وأشار إليّ بيده أنه لا تريب عليّ مما قلت.. فتنفست الصعداء، ولما انتهى لقولنا غادرت المجلس بعد أن أذن لي السلطان بذلك.

مكثت بضعة أيام في إسطنبول، قبل أن أمتطي فرسا سريع العدو انطلقت به إلى حلب التي وصلت إليها بعد عشرة أيام من السير الخفيف. وحسبما يقال لم يحدث أن فرسا قطع المسافة بين إسطنبول وحلب في عشرة أيام قبلي.

في خلال رحلتي إلى حلب أمضيت ليلة في بورصة وأخرى في قونيا. أما في غير ذلك فقد كنت عندما يبلغ مني التعب مبلغا كبيرا أنزل عن فرسي فأنام ساعتين ثم أقوم وأكمل رحلتي

وعندما وصلت إلى مدينة قونيا زرت قبر مولانا جلال الدين الرومي وفي اليوم العاشر بلغت حلب ودخلت القصر الذي نزل فيه الوزير الأعظم الدامات إبراهيم باشا DAMAT İBRAHİM PAŞA. كان الوزير في الأربعينيات من عمره وهو بذلك في مثل سن مولانا السلطان، طريفا لطيفا شديد الدكاء

أقيمت يومين في حلب ناقشت خلالها مع الوزير الأعظم الأوضاع السياسية في أوروبا والعمليات البحرية التي يقوم بها الأسطول الهمايوني. وعند فراغنا أصدر الوزير قرارا بتعييني قبطان داريا والبسي الخدعة ثم ودعني.

وصلت إلى إسطنبول بعد عشرة أيام من معادرتي لحلب. لقد كنت في غاية السعادة لتولي قيادة أكبر أسطول في العالم. ذلك الأسطول الذي يجعل أساطيل أوروبا مجتمعة عاجزة عن إحراق الهزيمة به.



## وصرت على رأس أعظم أسطول في العالم

هرعت على الفور إلى دار بناء السفن بإسطنبول لقد كان للدولة عدد كبير من دور بناء السفن في كثير من المدن، إلا أن أكبرها كان في خليج القرن الذهبي. لم يكن هذا المصنع نظير في جميع دول العالم لا في قدرته الكبيرة على استيعاب عدد هائل من السفن ولا في عدد العمال والصناع

لقد كان مصنع بناء السفن يرحر بكل ما يحظر على المال من أرباب الصناعة والحرف. فالعمال والصناع كان معظمهم من الأسرى المسيحيين، أما الفتيون والمهندسون فقد كانوا جميعا من الأتراك.

لم يكن العمال المسيحيون يعملون بحرية بل كانوا يأخذون أجرة مقابل عملهم. إذ تُجمع لهم قيمة أعمارهم وتُدفع لهم في نهاية عملهم. وهكذا كان الكثير منهم يستعيدون حرياتهم ويتم إرساؤهم إلى بلدانهم.

كما أن عدد العمال لم يكن يقل عن عشرين ألف عامل. وعند الحاجة كان بإمكاننا أن نقوم ببناء وتجهيز أسطول يصاهي أسطول جمهورية البندقية خلال سنة واحدة.

في الحقيقة لقد بلغت شهرة مصنع بناء السفن بإسطنبول

الآفاق، حتى أن كهار جمهورية الهندية كانوا يتوددون إلى مولانا السلطان خلال فترات الصلح بإهداء بعض سفنهم وإرسالها إلى مصنع إسطنبول.

لم يكن في وسعي تقدير مدى عظمة الأسطول العثماني قبل أن أتمكن من معانيته بنفسه. فبهذا المصنع الضخم وبدعم دولة على هذا القدر الكبير من الغنى، وقيل ذلك بإذن الله وتوفيقه يمكننا أن ننجح في تحقيق ما نصبو إليه.

اقترحت على إبراهيم باشا أن نقوم بتنظيم حملات نوحها للعالم الجديد<sup>(1)</sup> الذي اكتشف حديثاً فنحن من ذلك فوائد عظيمة. إلا أنه لم يأذن لنا معتذراً عن ذلك بضرورة الاكتفاء بفرض سيطرتنا على البحر المتوسط والمحيط الهندي<sup>(2)</sup>.

(1) يقصد أمريكا التي كانت قد اكتشفت قبل سنوات قليلة من تاريخ هذه الحوادث.

(2) بسبب ازدياد خطر الإسبان الذين احتلوا جميع سواحل الشمال الإفريقي تقريباً، وقيام البرتغال بالاتصاف حول العالم الإسلامي من الخلف حتى بلغوا الهند وشكلوا خطراً كبيراً على البلدان الإسلامية المطلة عليه، كانت سياسة الدولة العثمانية ترمي إلى تأمين السواحل الإسلامية المطلة على البحر المتوسط والمحيط الهندي. لمزيد من التفاصيل انظر: نيقولا إيغنونوف، الفتح العثماني للأقطار العربية (1516-1574) دار العربي، بيروت، 2004، ط 1، ص 43-51.

في الوقت الذي كنت أشرف فيه على تنظيم مصنع بناء السفن وبناء مراكب جديدة، كنت أقوم إلى جانب ذلك بالتجول في إسطنبول. فزرت خلال ذلك مراراً جميع السلاطين والأمراء العثمانيين، وقرأت على أرواحهم المباركة سورة الفاتحة. كما قمت بمساعدة كل من لقيته من المحتاجين وقضاء حوائجهم.

أدركت خلال ذلك بأن شهرتنا سبقت إلى إسطنبول. فقد وجدت الجميع يعرفوني وبعثهم أخبار معاركنا التي خضاها في عرض البحر لقد كان أهالي إسطنبول يكونون لنا قدراً كبيراً من الحب والتقدير وكنت أبادهم نفس الشعور.

خلال حياتي زرت العديد من البلدان والممالك، ولم يكن سوى عدد قليل منها لم أتمكن من زيارتها. إلا أنني خلال سياحتي تدت لم أر بلداً يضاهي مضيق إسطنبول<sup>(1)</sup>. في جماله وروعته، فكأن كل زاوية منه قطعة من الجنة. سوف أشتري قطعة من الأرض محاذية للمضيق قريب من بحر مرمرية أجعلها قراً لي أدفن فيه إن شاء الله<sup>(2)</sup>.

(1) يقصد مضيق البوسفور الذي يفصل بين الشطر الأوروبي والشطر الآسيوي من مدينة إسطنبول.

(2) بالفعل، اشترى خير الدين باشا قطعة أرض على ساحل باشكتاش لمطل على مضيق البوسفور ودفن فيها، ولأزال قبره معروفاً حتى

أثار تعييني قبطان داريا على رأس الأسطول العثماني ردود  
أفعال كبيرة في أورنا، خصوصا لدى الملك كارلوس الذي شعر  
بقلق كبير من هذه الخطوة

وعندما حل الربيع خرجت من إسطنبول في ثمانين سفينة  
من وحدات الأسطول العثماني حتى بلغت مضيق ماسينا. كانت  
موانئ مسينا تقع في سواحل شبه جزيرة صقلية المحاذية لسواحل  
روجيو REGGIO الإيطالية استوليت عليها جميعا وحملت ستة  
عشر ألف أسير في سفني. في هذه الحملة قمت بفتح ثمان عشرة  
قلعة وأرسلت مفاتيحها مع ستة عشر ألف أسير وأربعمائه  
وحمة وعشرين صندوقا كبيرا من الغنائم على متن أربعين سفينة  
من نوع قنطرة إلى إسطنبول أما أنا فقد احتفظت بأربعين سفينة  
لبعض الوقت.

كان مولانا السلطان والوزير الأعظم الدامات إبراهيم باشا  
راضين عن الإصلاحات التي قمت بها لتحديث الأسطول  
العثماني وكذا الانتصارات التي حققتها في عرض البحر. إلا

اليوم، وقد أسس إلى جانبه متحف البحرية وميناء لارال يحمل  
سمة حتى اليوم بالإضافة إلى ساحة يتوسطها تمثال كبير له،  
تعرف باسم ميدان بربروس.

أن بعض الحساد من رجال الدولة الذين أكلت الغيرة قلوبهم  
لم ينجحوا من أن يهمس بعضهم لبعض قائلين  
«انظروا إلى ما يفعله مولانا السلطان! لقد عين قرصانا على  
رأس الأسطول العثماني برتبة قبطان داريا!!».

إن أغلب هؤلاء الحاسدين الذين كانوا يتهمسون بقالة  
السوء لم يفتح في حياته قلعة واحدة، ولم يستول على سفينة  
واحدة من سمن الأعداء، إلا أن مولانا السلطان لم يكن يدع  
فرصة تفوت دون أن يثني علي ويهدي إعجابه ورضاه عني  
لقد كان تقديره يتصاعف مع مرور الأيام

ولما رأى الحاسدون ذلك انقطعوا عن إظهار حسدهم  
والتهامس بما يكرهون. ولم يجدوا بدا من كتمان مشاعر العيرة  
في أنفسهم لأنه لم يعد في وسعهم إظهارها والتعير بها.

كان أول خروج لي بصفتي قبطان داريا بعد حملة صقلية،  
أني توجهت إلى جزيرة سردينيا، ومن هناك إلى الجزائر ثم تونس  
التي فر سلطانها من شدة الخوف تارك عاصمة ملكه ولحا إلى  
الصحراء. فدخلت مدينة تونس. وفتحت سائر بواحي المملكة  
حتى بلغت القيروان في الجنوب ثم قفط راجعا إلى تونس.

كان سلطان تونس ينتمي إلى الأسرة الحفصية التي فرضت  
نفوذا ذات يوم على كامل شمال إفريقيا.

لم يتأخر هذا السلطان في الاستنجاد بملك كارلوس



لاستعادة عرشه فلبى هذا الأخير الدعوة وعلمت بأنه سوف يتوجه إلى تونس لإحراجها منها. ولأجل ذلك شرعت على الفور في الاستعداد للتصدي له

في ذلك الشتاء أرسلت بعض سفني لضرب السواحل الإسبانية في غرب البحر المتوسط. وأما أسطولي الذي وجهته للإغارة على سواحل سردينيا فقد عاد محملاً بأثني عشرة ألف دوقه ذهبية، وأربعمائة وخمسة وسعين أسيراً بالإضافة إلى غنائم أخرى

وفي النهاية شوهد الملك كارلوس بنفسه على رأس أسطوله الكبير في سواحل تونس. كان الأسطول متشكلاً من آلاف الجنود الذين تم حشدتهم من الممالك المحاصصة لكارلوس مثل إسبانيا وألمانيا وإيطاليا وهولندا وغيرها.

وصل كارلوس إلى تونس في خمسمائة قطعة بحرية بين سفن حربية وأخرى لنقل الجيود، وذلك بعد سبعة عشر يوماً من مغادرته ميناء برشلونة

كان الاستيلاء على تونس يستلزم احتلال قلعة حلق الوادي، ولمع الإسبان من تحقيق ذلك كلفت سنان رئيس الذي كان أحد أحسن رياس البحر بالدفاع عن القلعة

فرص الإسبان حصاراً شديداً على القلعة. لقد كان كارلوس يتولى بنفسه قيادة جيشه الكاهر، بينما تولى أندريا دوريا قيادة

الأسطول.

كان لدى سنان رئيس مائة وعشرون مدفعاً، بينما كان العدو يملك مئات المدافع في البرية والبحرية

نظم سنان رئيس ثلاث هجمات خاطفة على قوات العدو، ثم خلالها قتل ستة آلاف جندياً من جنود الكفار. أما أن فقد كنت في تونس أترخص بحذر ما سوف يقوم به سلطان تونس مولاي الحسن. كان معي اثني عشر ألف جندي، إلا أن نصفهم كان من المتطوعين البدو الذين لا يعرفون قواعد الحرب، ولا يترددون في الفرار أو الالتحاق بالعدو عندما تشتد عليهم وطأة الحرب.

كل ما كنت أرجوه هو الصمود لأطول مدة ممكنة في حلق الوادي، فقد أرسلت على جناح السرعة إلى إسطنبول أوامري بضرورة التعجيل بإرسال الأسطول العثماني إلى تونس. فإذا وصل الأسطول بالسرعة المطلوبة فإن كارلوس سوف يجد نفسه بين يارين ويمنى بذلك بهزيمة تكراً.

كان كارلوس يعلم هذا أيضاً ولذلك كان يستعجل احتلال حلق الوادي متغصياً عن خسائره الكبيرة.

في الحملات التي قادها سنان رئيس على القوات الإسبانية تمكن من قتل كل من أمير سارنو SARNO وأمير مونديا MONDEA اللذين كانا أحد أشهر قادة الجيش الإسباني.

أما السلطان مولاي الحسن فقد كان في طريقه إليها في ألف ومائة مرس وثمانية آلاف رجل محمّس بالطعام ولوزم الحرب. إلا أنه لما بدا أن سقوط قلعة حلق الوادي صارت مسألة وقت بدأت أعوانا التلحّر والثورة تظهر في تونس.

كنت على وشك الوقوع بين يدين عندما انقلب صني المتطوعون اليدين كدبو تحت إمرة واليانج عددهم ستة آلاف رجل. لقد قاموا بـحياتي متمنعين للملك كارلوس عليهم يحظون برصاصهم، فسم أجدرّدا من التعجيل بالانسحاب جنوب.

بدأت خيافة أولئك العدو عندما كنت معسكرا مع رجالي الستة آلاف أمام أسوار المدينة. إذ لموا بقنع أبواب سجون المدينة ليتطلق منها عشرة آلاف أسير نصراني كانوا فيها.

لا شك أن من بين هؤلاء البدو من كان يحمل مناهر المؤدة للأتراك، ومسلّحهم يديهم كان يمنعهم من القيام بعمل هذه الخطورة الدينية إلا أن عقولهم كانت قد تسكنت بالدعاية التي أطلقها السلطان مولاي الحسن بواسطة جواسيسه الذين كانوا يشيعون بين الناس أن الإسبان إنما جاءوا لإنقاذ تونس من الأتراك وأن ملكهم مولاي الحسن قد اتفق مع الملك كارلوس بأن الإسبان لن يريقوا قطرة دم مسلم عندما يدخلون المدينة. لقد وجدنا أنفسنا وسط محيط معادي لنا فمن جهة كان

علينا أن نتصدى لعشرة آلاف أسير الذين استولوا على المدينة من داخلها، وفي ذات الوقت كان علينا أن نقاتل العدو الكافر. إن هذا الوضع جعل صمودنا أمام العدو أمرا مستحيلا. في هذه الأثناء منعت قلعة حلق الوادي إلا أن ستان رئيس تمكن من الانسحاب إلى المدينة بسن بقي معه من البحارة الأتراك ليعضهم إنيانا

لقد استحق ستان رئيس بقلديرا كبيرا بذلك الانسحاب بعدما قطعت الأمل في نجاحهم. إن كفاءته العالية مكنته من إنقاذ البحارة من الطوق الذي خضبه عليهم العدو.

بالرغم من ذلك كله دافعت عن تونس ستة أيام بعد سقوط قلعة حلق الوادي، وكبدت العدو خسائر كبيرة.

وبالتحاق البحارة الذين جاء بهم ستان رئيس من قلعة حلق الوادي ارتفع عدد قواتي إلى تسعة آلاف وسبعمائة جندي. إلا أن الجيش الإسباني المكون من ثلاثين ألف جندي وخمسمائة سفينة مجهزة بمدافع، يسندة مولاي الحسن الذي صار إلينا في جيشه من الجنوب، جعل التصدي هذه القوات مجتمعة في حكم المستحيل.

وريادة على ذلك عون أربعين مدفعا مع كميات كبيرة من ذخيرتنا الحربية استولى عليها العدو في حلق الوادي.

ذهب مولاي الحسن إلى معسكر كارلوس وقتل رجلي

الملك الكافر، وبفصله شرع في حشد قوات كبيرة من الأعراب لمحاربتنا.

في أول اشتباك لي مع الإسبان وحليفهم مولاي الحسن فقدت ألفين وخمسمائة شهيد. كانت مؤثرات الحرب توحى بأنه ليس في وسعي أن استمر في المعركة بمن بقي معي من الجود البالغ عددهم سبعة آلاف ومائتي جندي. لقد كنا في وسط فصل الصيف والحر شديد الحرارة.

قامت بناخر حملة على العدو، إلا أنني عندما أردت الانسحاب إلى المدينة فوجئت بإغلاق الأهالي أبواب المدينة في وجهي في الأساس كان ثمة أسير كافر أسلم حديثاً يدعى جعفر قام بفتح أبواب السجن فاندفع الأسرى النصاري من زنازينهم وتمرقوا في أنحاء المدينة حيث تمكنوا من السيطرة عليها.

قامت بهجوم كبير لتشتيت صفوف العدو، كانت أصوات البحارة تدوي بصيحات «الله الله» فيتردد صداها في السماء لتتعلق من هوها قلوب الكفار.. في هذه المعركة سقط الآلاف من الشهداء، أكثرهم كان من مرعش الله وحده يعلم كم غميت أن أكون شهيداً بينهم.

لم أكن لأفرح بنجائي لولا أن الكثير من كبار نبلاء أورب تحملوا مشقة ومخاطر الاشتراك في هذه الحملة فقط من أجل أن يستمتعوا بالفرح عني أساق مقيدا في الأغلال. إلا أن تلك

الرحبة تحولت إلى حسرة في قلوبهم عندما كتب الله لي النجاة. إنني أحمد الله الذي نجاني ولم يشمت بي الأعداء، ولن أدع دماء آلاف المسلمين التي أراقها كارلوس تذهب هدرًا.

لم يبق معي سوى أيدين رئيس و سنان رئيس وبضعة آلاف من البحارة المثخنين بالجراح. إلا أننا قد قمنا بتمزيق صفوف العدو وتشتيت شمله.

قطعت خليج تونس من بدايته إلى نهايته حتى بلغت بلد «العُباب» المطل على جنوب غرب جزيرة صقلية حيث كانت تنتظرني أربع عشرة سفينة حربية من نوع قادرغة. في هذه الأثناء عرق أيدين رئيس ومات شهيداً.

أدعو الله أن يجعله ممن ثبوا مكانة عالية في الجنة هو وجميع البحارة العظام الذين أنجستهم الأمة التركية ممن ذاع صيتهم في سائر أنحاء أوربا بجهدهم ونكايتهم في العدو، وعلى رأسهم المرحوم كمال رئيس وأخي الذي تعلم على يديه.



(1) يقصد صابة التي كانت تعرف ببلد العباب وبونة

## وحشية الصليبيين في تونس

كانت تونس إحدى أكبر المدن الإفريقية، وعندما اقتحمها الصليبيون قاموا بدمار ثلاثين ألف مسلم عربي واسترقاق عشرة آلاف امرأة وطفل، وخربوا المساجد والمدارس والمقابر ونهبوا محتويات القصور، كما قاموا بحرق آلاف المخطوطات والكتب التي كانت تزين بها مكتبات تونس، ففقدوا بذلك على مدى أنواع العلوم والفنون الباهرة.

وعندما أدرك الكفار أنني قد أفلت من أيديهم قاموا بإفراغ جام غضبهم على البؤساء من الأهالي المسلمين، وتمنن الإسبان في التعبير عن أشنع ما تحمله نفوسهم الشريرة من سوء

بعد مرور اثنتين وسبعين ساعة على حملة النهب والقتل والتدمير دخل الملك كارلوس المدينة بعدما حولها إلى خراب، لقد اضطبعت أرجل فرسه بلون الدم المتدفق من أشلاء الضحايا المتناثرة في أرقه وشوارع المدينة<sup>(1)</sup>

(1) شه بعضهم المجرة التي قام بها الإسبان بذلك التي قام بها الصليبيون في بيت المقدس عندما سقطت في أيديهم وأندرس ابن أبي الصياغ إلى أن دلت مكان تونس تمت إبادتهم وأمر نهبهم وطمس معالم المدينة تماما. انظر أحمد بن أبي الصياغ، إنحاف أهل الرمان بأخبار

هكذا سقطت مدينة تونس وضواحيها، وخصص معها الخفصيون للإسبان؛ بينما بقيت المناطق الجنوبية وجميع السواحل الشرقية حاصعة لنا. أما تونس فكانت قد بقيت تحت إدارتنا أحد عشر شهرا.

وصلت إلى الخزائن قادمة إليها من تونس، ومن هناك خرجت في اثنتين وثلاثين قطعة بحرية حتى بلغت جزر البليار حيث أمرت بنهب جزيرتي ميورقة وميورقة وتمكنت من أسر خمسة آلاف وخمسمائة أسير من ميناء ماهون MAHON وبالما PALMA. بعد ذلك توغلت في المحيط الأطلسي عبر مضيق سبتة<sup>(2)</sup> وطلعت بأسطولي في خليج كاديك KADIZ الواقع بين إسبانيا والبرتغال حيث قمت بتحريب ميناء فارو FARO جنوب البرتغال.

استولينا في سواحل فارو على سفينة كبيرة من سفن البرتغال، كانت محملة بستة وسبعين مدفعا، على متنها ثلاثمائة بحار، ويدفعها مئات الجنود. كانت السفينة قادمة من أحد محملة

ملوك تونس وعهد الأمان، تونس 1999، 2/12-13؛ وعن مجرة تونس انظر أيضا: سميح إنتر لأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، ص 115

(1) يقصد مصيق حسن طارق

بصائع هدية قيمة، بالإضافة إلى ستة وثلاثين ألف دينار ذهبي  
لقد حل حال السفينة وضحايتها دون إغراقي لها، فقامت  
بسحبها إلى الجزر.

توجهت إلى إسطنبول بعد إقامة قصيرة في الجزائر، ومثلت  
بين يدي مولانا السلطان سليمان خان الذي تفضل بقبولي في  
مجلسه الخاص، حيث أطلعته بشكل مفصل على جميع ما جرى  
لي في عرواتي الأخيرة

تفضل مولانا السلطان بقبول الهدايا التي أتخفتها بها، والتي  
كانت عبارة عن مسبحة من اللؤلؤ وخاتم مصنوع من الحاس  
ومساعة ذهبية وثلاثة من الطيور النادرة كانت قيمة هذه الهدايا  
تساوي اثنا عشر ألف أوقية. وبعد ذلك قامت بزيارة الوزراء  
وسلمت لكل منهم هديته. دفعت إلى خزانة الدولة خمس العتائم  
المقررة شرعا

بعد أن أنهيت زياراتي الرسمية، مصيت إلى مصنع بناء السفن  
حيث جلست في مقر عملي واستعلمت عن التطورات التي  
حدثت في أثناء غيابي، ثم دعوت رئيس المهندسين وأمرته  
بالشروع في بناء ثلاثين سفينة من نوع قاذرة. ذلك لأسي كنت  
على وشك الخروج للغزو برفقة مولانا السلطان.

ولما اكتمل استعدادنا للعرو خرجت على رأس الأسطول  
العثماني يسير حرك مولانا السلطان برا على رأس جيش كبير حتى

بلغ سواحل بحر الأدرياتيك

كانت هذه الحملة تستهدف جمهورية البندقية وسمبايا، ذلك  
لأن مولانا السلطان كان يريد أن يستولي على ميناء أوترانتو  
OTARANTO الواقع جنوب شرق إيطاليا بعد أن يفتح جمهورية  
البندقية وجزيرة كورفو KORFU بالإضافة إلى إسبانيا.

عندما دخلت إلى بحر الأدرياتيك ADRIYATIK لمحت  
قطعة كبيرة من أسطول البندقية فأمرت على القور بهجوم  
عليه. فأغرقنا أربعة عشر سفينة من نوع قاذرة، واستولينا  
على ستة عشر سفينة أخرى من ذات النوع، بينما لاذت بقية  
وحدات الأسطول بالفرار.

جاء الورداء والبلربايات وكبار رجال الدولة إلى سفينة  
القيادة مهتئين لى على هذا الظفر العظيم ولم يلبث أن عاد مولانا  
السلطان إلى إسطنبول برا بينما رجعت أنا على رأس الأسطول.

في السنة الموالية خرجت للعرو في بحر إيجه EGE، يسير  
غادر مولانا السلطان إسطنبول في حملة كبيرة لعرو البوغدان  
BOGDAN.

في هذه المرة لم يكن قد بقي لكهار البندقية في بحر إيجه سوى  
حرر كربة وكاشوت KASOT التي كنت على وشك فتحها، كما  
كنت أتتياً في الوقت ذاته لإحراق سواحل جزيرة كريت  
GIRIRT وإجبار البندقية على توقيع معاهدة صلح. إلا أن



اعتداء محتملا من أندريا على أسطول صالح رئيس القادم من الإسكندرية جعلني أعطي أوامري بصحبة التوجه لحمايته أولا. كان صالح رئيس قدامى من مصر بكنوز الهدى مرسلة من طرف الشاه كوجارات KOCARA أحد عظماء ملوك الهند إلى إسطنبول.

لقد أرسل إليا بهادر شاه يطلب المدد لتطهير بحار الهند من لرتغاليين. ولذلك فعدت معدتي لإسطنبول ستة أيام، وقبل خروج مولانا السلطان لدعزو بحمسة وعشرين يوما عادر سليمان باشا بيلرباي مصر ميماء السويس على رأس أسطول كبير متوجه إلى الهند.

لم يكن أندريا دوريا يكره أحدا على وجه الأرض بعدي سوى صالح رئيس هذه الأحرار الذي أفقدت شجاعته المدهلة ودكؤه احراق عقول ملوك وكبار قسطة وقراصنة الكمار. وهو دوريا قد بلغه بأن صالح رئيس في طريقه إلى إسطنبول حاملا معه كنوز الهند، فخرج في إثره بأسطول كبير أملا في أن يصرب عصفورين بحجر واحد. إلا أنه سرعان ما تحلى عن حلمه عندما بلغه أنني أرسلت أربعين سفينة لإمداد صالح رئيس، فلاد بالقرار كعادته مخفيا في بعض موانئ البحر المتوسط. بعد أن فتحت ثمانية وعشرين حريرة وسبع قلاع كانت خاضعة لجمهورية البندقية، جعلت على كل منها حامية لحمايتها والدفع عنها، أعرت على أعريوز هلع عدد الأسرى الذين

وقعوا في أيدي عشرين ألف أسير<sup>(1)</sup> أرسلتهم جميعا إلى إسطنبول. ترامي إلى علمي بأن معظم أساطيل أوربا قد تم حشدها تحت قيادة أندريا دوريا في هذا المكان. وعلى إثر ذلك أرسلت تورغوت رئيس TURGUT REİS على رأس عشرين قادرة لاستكشاف الأمر. إلا أنني لم أطلق صرا إلى حين عودة تورغوت رئيس فاطلقت بأسطولي من أعريوز وقمت بمسح جنوب جزيرة مورة. وفي الوقت الذي وصلت فيه إلى مودون MODON كان الصليبيون قد حشدوا قواتهم في سواحل قورفو. فاطلقت من مودون وقطعت جنوب سواحل مورة متجها شمالا حتى دخلت خليج أرنا ARTA KÖRFEZİ.

كانت قلعة مروزة PREVEZE تقع في الراوية الشمالية العربية من هذا الخليج الصغير. كما كان مدخلها صيقا حدة بحيث لم يكن في وسع العدو أن يدخل إلى خليج أرنا ما لم يتم بتدمير المدافع التركية المنصوبة على أسوار قلعة برورة وهو ما

(1) يبدو لأول وهلة أن هذا الرقم مبالغ فيه إلا أنه بالتمعن في عدد الحروب والقلاع التي تم الاستيلاء عليها يبدو أن هذا العدد معقول جدا خصوصا وأنه في ذلك العصر كانت قوات الحروب تقضي بأسر كل الأشخاص التابعين للدولة العدو عندما تفتح بلادهم عبوة هو ما يتضح من سياق الأحداث.

كان أمرا في غاية الصعوبة.

جمع الملك كارلوس أساطيل السندقية وجنوة والباوية وفلورنسا ومالطا، وجعلها تحت إمرة أندريا دوريا. في حياتي لم أَر ولم أسمع بل حتى في كتب التاريخ لم أقرأ عن أسطول بهذا الحجم<sup>(1)</sup>. لقد كان الأسطول مكونا من أكثر من ستائة سفينة، منها ثلاثمائة وثمانية سفن حربية، ومائة وعشرون سفينة كبيرة لنقل الجنود. ويقوم بدفع الأسطول آلاف الجدافين. وتم نقل ستين ألف جندي على متن هذا الأسطول، حتى أن بعض السفن الضخمة كانت تُقَر على متنها ألفي جندي. فصارت تدو كقلعة تسبح ببطء على سطح الماء من جراء ضخامتها وثقلها.

كان لديّ مائة واثنان وعشرون سفينة من نوع قادرغة، ولم يكن لدي سفن لنقل الجنود. وفي المعارك المفتوحة لم أكن في حاجة إلى سفن مساعدة. أما عدد المقاتلين فقد كان لديّ عشرون

(1) ما ذكره خير الدين ليس من باب المبالغة بل صحيح. فالبحر المتوسط لم يعرف معركة بحرية بهذه الضخامة منذ معركة أكسيوم التي قادها ولي عهد إمبراطورية روما أوكتافينوس ماركوس أنتونيوس ضد أسطول كليوبترا والتي وقعت في سواحل اليونان سنة 31 قبل الميلاد. انظر: محمد دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر، رسالة دكتوراه لم تنشر، جامعة مرمرة، إسطنبول 2006، ص 186.

ألف جندي من رجال البحر والمدفعين ما عدا الجدافين. وعلى هذه الصورة فقد صار مجموع الرجال لكلا الطرفين المتحاربين بما في ذلك الجدافين مائة وعشرين ألف رجل. إن اجتماع هذا العدد الهائل من المحاربين على سطح البحر في موضع واحد لا يمكن أن تراه العين أو تسمعه الأذن بل يصعب حتى تصوره.

دعوت رياس البحر إلى سفينة القيادة وتشاورت معهم جميعا. وبالرغم من الشجاعة الشديدة التي كان يتحلى بها تورغوت رئيس، والذكاء الخاد الذي اشتهر به صالح رئيس إلا أنهما أشارا علي بأن لا نعدو الخليج قبل انسحاب الصليبيين منه.

لم أوافق على هذا الرأي. نعم كنت أدرك بأن العدو يفوقنا بثلاثة أو أربعة أضعاف، إلا أن قوتنا كانت تكمن في حسن إدارتنا لأسطولنا والمحافظة عليه من أن يكون عرضة للدمار. وبالرغم من فارق العدد إلا أن طبيعة المعركة التي وجدنا أنفسنا مصطربين لخصوصها لم تترك لنا خيارا آخر غير التفكير في تحقيق النصر على العدو.

إن نخوض معركة مع أسطول لم يُر ولم يُسمع بمثله في العالم كان حظا عاثرا بالنسبة لي، إلا أنه لم يكن في وسعي أن أدع سواحلنا مكشوفة أمام الأسطول الصليبي. فلو فعلت ذلك فبأي وجه أقابل مولاي السلطان غدا!!

## معركة بروزة

خرجت من الخليج بعدما أخذت معي تورغوت رئيس، ولما علم أندريا دوريا بذلك أصيب بالذهول لأنه لم يكن يتوقع قيامي بهذه المناورة. لقد رفض القتال في ذلك اليوم لكي يتمكن من الاستعداد للمعركة. ولما انفتح أمامه منفذ في الشمال الغربي أخذ استعداده تحسبا لبداية المعركة. وفي الصباح الموالي وجدنا أنفسنا وجهها لوجه مثلما حصل في الليلة السابقة.

في صبحه اليوم التالي أحدثت مكابي على رأس الأسطول العثماني في الجناح الأوسط. كان معي في سفينة القيادة إبي حسن رئيس وولدي المعوي حسن رئيس الثاني، وكان على رأس الأساطيل المتمركزة في الجناح الأوسط الشيخ سنان رئيس، وجعفر رئيس، وشعبان رئيس.

وأما الجناح الأيمن فقد كان تحت قيادة الجناقلعي<sup>(1)</sup> صالح

(1) وقعت في خليج بروزة في 28 سبتمبر 1538 بين التحالف الأوربي المسيحي بقيادة أسري دوريا وبين الأسطول العثماني بقيادة خير الدين بربروس. وانتهت هذه معركة بانتصار العثمانيين مما مكّهم من فرض سيطرتهم على حوض البحر المتوسط لمدة ثلاثين عاما تقريبا.

(2) سسة إلى مدينة جناق قلعة Çanakkale التركية الواقعة على

رئيس ÇANAKKALI SALİH REİS، كما كان الجناح الأيسر تحت قيادة العالم والشاعر الكبير سيد علي رئيس<sup>(2)</sup>، وأما تورغوت رئيس فقد كان على رأس الأسطول الاحياطي في المؤخرة، وجعلت الرياس مراد وصادق وقوزلجة محمد GÜZELCE MEHMET تحت إمرته.

كان العدو متفوقا علينا من عدة نواحي، إلا أننا كنا نتفوق عليه في جوانب أخرى أهمها أنني كنت متحكما في جميع وحدات أسطولي. فقد كان بإمكان أن أطلب أي قاذرة مهما كانت بعيدة. وبإزاء هذا كان العدو على خلاف ذلك، إذ لم يكن في وسع دوريا أن يتحكم في الأساطيل التي وضعت تحت يده؛ بل حتى أجنحة قواته كان عاجزا عن إدارتها والسيطرة عليها.

ومن جهة أخرى كان جنود العدو لا يفهم بعضهم لغة بعض، تسود بينهم مشاعر الحسد والبغضاء لكونهم استقدموا من أجناس وأعراق مختلفة لا يربط بينهم رابط. كما أن كبير أميرالات البندقية فينسانتي كابيلو VINCENTI CAPELLO

مضيق الدردنيل. وكانت تعرف قديما باسم طروادة، وإليها ينسب حصان طروادة الشهير.

(1) كاتب المذكرات التي أملاها عليه خير الدين بربروس كما سلف بيانه في أول الكتاب.

وقد أسطول السابوية غريبابى ماركو GRIMANI MARCO  
كان يكرهان دوريا.

وأما عامل تفوقنا الآخر فيرجع إلى كون مدى مدافعت أطول  
من مدى مدافع العدو. ودون أن ننسى ذلك لحظة واحدة، يجب  
أن ندكر بأسى كنت قد جعلت أسطولي في موقع يمكّن قذائف  
مدافعت من دك سفن العدو بينما تهوي قذائفه على مسافات  
بعيدة من سفننا متوارية في أعماق البحر. لقد كان ذلك يجعل  
قباطنة الكفر يتميزون من الغيط دون أن يكونوا قادرين على  
فعل شيء.

ومجأة جاءت لحظة لم تكن متوقعة، أدرك خلالها دوريا  
أنه قد بات في موقف يشير السخرية وذلك عندما أصدر أوامره  
لأساطيله بالاقتراب من أسطولنا. إلا أن هذه الأوامر عندما  
أراد تطبيقها تبين له بأنه قد تأخر كثيرا. لقد كنا كسرنا شوكة  
أسطول الكفار منذ وقت بعيد.

مكنتنا خفة وحدات أسطولنا من الالتفاف حول سفن العدو  
لكيرة التي كانت تتحرك ببطء شديد. فقد كانت سفننا الصغيرة  
تتوغل بسرعة حتى تجعل سفن العدو في مرمى مدافعتنا، فتقصفها  
من أي ناحية تريد ثم تنسحب بسرعة، دون أن تتعرض للحظر.  
كما كان ثمة عنصر آخر من عناصر تفوقنا على العدو.  
ويتمش ذلك في أن بحارتنا كانوا يرتدون البسة خفيفة ويحملون

أسلحة خفيفة، بينما كان فرسان الكفار مدججين بالدروع التي  
تعطي معظم أجسادهم وتعوق حركتهم. لقد جعل هذا المارق  
بحارتنا يعملون السف في رقاب العدو بحفة ورشاقة وبأقل  
قدر ممكن من الخسائر.

وأخيرا كان تفوق الأكبر يتمثل في قوة إيماننا، وتبعيتنا لمولانا  
سلطان العالم.



لوحة فنية عن معركة بروزة

## دوريا في حالة يرثى لها .

عندما بدأت المعركة كانت الرياح الجنوبية تهب بشدة مخالفة لاتجاه سفنا وعند ذلك قمت بثر بصعقة أوراق مكتوب عليها آيات من القرآن الكريم على سطح البحر، ثم وقفت متضرعة إلى الله في ذلة وانكسار بأن يلطف بنا ويتولانا بحفظه ورحمته. فلم يمض وقت يسير حتى استجاب الله تعالى لدعائي ولم تلبث العصفرة أن هدأت قليلا ثم تغير اتجاهها.

ومثلي أرسلت لقد وحد دوري نفسه أسيرا للمتاورات البحرية التي كنت أقوم بها، والتي على أساسها كان يحدد طبيعة الحركة التي يتوجب عليه القيام بها. لقد كان في حالة يرثى لها عندما نعثرمت وحدات أسطولها تحت تأثير قذائف مدافعها.

أمرت تورغوت أن يقوم بمطاردة سفن الكفر. ولما وجد دوري نفسه بين نارين أصدر أوامره إلى أسطولها بالرجوع كن اللين قد بدأ يرحي سدوله فانتهاز دوري الفرصة وأمر جميع سفنه بأن تطلق مصابيحها.

إن هذه الخطوة تعكس مدى وضاعة دوري، فصلا عن أب كانت نذير شؤم عليه وعلى أسطولها. وتجل ذلك في فراره بنصف الأسطول تحت جناح الظلام. إلا أن معظم سفنه هاربة أصيبت بقذائف مدفعنا، فم يبح منها سوى القليل.

كان نصف سفن الأسطول الذي أعده كورلوس ودوق السدقية بمساعدة البابا لمواجهة قد استقر في قاع البحر. لقد كانوا يحلمون بانتراخ البحر المتوسط من أيدينا ويستولوا على مالكناء من تمادي بهم خيالهم الساذج إلى تقاسم ولايات مولانا السلطان، وانفقوا فيما بينهم على أيهم يملك هذه الولاية أو تلك. دامت المعركة خمس ساعات، فقديا خلالها بضعة سفن لنا وبعد مطاردة العدو تحت جح الظلام، تمكن تورغوت من الاستيلاء على عدد من السفن التي أصيبت بقذائفها.

أما أنا فقد أمرت ولدي حسن رئيس بأن ينطلق على الفور إلى مولانا السلطان ليشره بالنصر. فأدركه في أدنة EDİRNE بعد سبعة عشر يوما من خروجه كان السلطان في ذلك الوقت قافلا من حملته على البوغدان. ولما وصل حسن رئيس إليه استقبله في معسكره في يانبولو YANBOLU

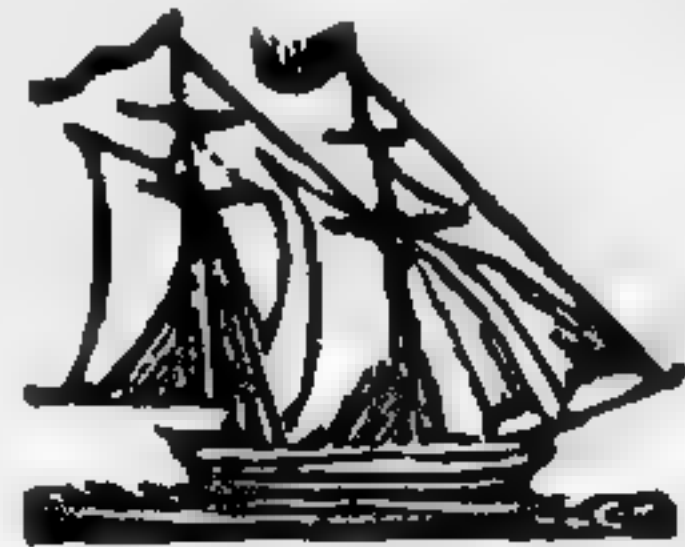
أمر مولانا السلطان بعقد اجتماع طارئ للديوان. وعندما اجتمع أعضاء الديوان، وقف حسن رئيس بين يدي السلطان وقتل يده لشرقة، ثم قرأ عليه رسالة النصر التي بعثها إليه. فحمد السلطان الله وأنصت إلى البشري وهو واقف على قدميه وقبل غروب شمس ذلك اليوم أمر السلطان بأن تقام الاحتمالات في سائر أرجاء السطنة احتفاء بهذا النصر المبين.

رحمت إلى إسطنبول بالأسطول السلطاني، فوجدت الأهالي قد أقاموا احتمالات كبيرة تعبيرا عن فرحهم بانتصربنا. وبعد



استراحة دامت بضعة أيام غادرت المدينة متوجها إلى أدرنة للقاء مولانا السلطان، الذي استقبلني في مجلسه الخاص. مكثت أيما في مجلس السلطان أقصّر له على أفراد ما جرى في هذه المعركة بكل تفاصيلها.

في السنة التالية خرجت على رأس الأسطول فتوعلت في بحر الأدرياتيك. في هذه الحملة تمكّن ابني حسن رئيس وصهره تورغوت رئيس من انتزاع قلعة نوا NOVA من جمهورية السندقية وفتحها، الأمر الذي دفع هذه الأخيرة إلى الخضوع وطلب لصلح. فعقدنا صلحا تحلّت بموجبه السندقية لنا عن العديد من الجزر والقلاع، ودفعت لنا تعويضات كبيرة.



### كارلوس يعرض على خيانة مولاي السلطان !

بعد معركة بروزة يثس الملك كارلوس من الانتصار على الأتراك في عرض البحر، فشرع يستعد للاستيلاء على شمال إفريقيا التي كان ولدي حسن باي يشرف عليها بيانة عبي، بصفته وكيلًا لليليرباي. وعندما قاد حسن باي حملة مكونة من ثلاثين قاذرة على جبل طارق واستولى على قبعته، جاعلا منها قاعدة ينطلق منها للإغارة على الأراضي الإسبانية، جُن جنون الإنسان. فكان من أثر ذلك أن صار كارلوس يتصرف بطريقة يائسة تدعو للسخرية. ذلك أنه أراد التعبير بي، إذ عرض على حيانة بلدي وسلطاني وديني وقومي فبعث إلي رسالة جاء فيها.

«إن تنزيلك من منصبك كملك للجزائر لتكون بيلربايا عليها حسبما تقضي به التقاليد العثمانية، يعتبر إهانة بالغة لك وها أمدا أعرض عليك أن تتحلّى عن خدمة السلطان سليمان، على أن أحعهد ملكا وحيدا على كل البلاد الإفريقية الواقعة بين البحر الأحمر والمحيط الأطلسي وليكن معلوما لديك بأنني لا أريد أن تكون حليفا لي، بل يكفي أن تكون صديقا لي، وتقطع صلتك بالعثمانيين. فهذا كل ما أريده منك».

قامت على الفور بتسليم الديوان السلطاني برسالة الملك



كارلوس، وكتبت إلى الوزير الأعظم الدامات لطفي باشا قبل خروجنا لغزو إيطاليا خطابا جاء فيه:

«سيدي الباشا. إني أحذركم من التعاقل عما يُعدُّ له كارلوس. فهو عندما يتبين له بأن مناورته هذه لن تأتي بنتيجة سوف يفكر في خطوة مأكرة أخرى. وفي تقديرى بأنه سوف يستغل غيابي عن الجزائر ويجهز حملة عليها».

فكر لطفي باشا في الأمر ثم كتب إلي يقول:

«سيدي الباشا.. أنت تعرف الملك كارلوس أكثر مني، فقد أفنيت حياتك في محاربه. ولا شك أنك تدرك أكثر مني الاحتياط اللازم الذي يجب أخذه لحماية الجزائر، خصوصا وأن الأسطول موضوع تحت تصرفك. إلا أن نصيحتي لك هي أن لا تعجل برفض عرض الملك كارلوس، بل عليك أن تقوم بإلهائه وتسويق الرد عليه قدر ما تستطيع، ريثما تتضح لنا الأمور بشكل أفضل».

بناء على المراسلة التي جرت بيني وبين الوزير الأعظم، كتبت على الفور إلى أندريا دوريا -الذي عينه الملك كارلوس معاوضا لي- جوابا مهما جاء فيه:

«إنني على استعداد للتفاوض معكم بشأن العرض الذي تقدم به ملككم إلا أن هذا لا يمكن أن يتم في إسطنبول خوفا من وصول الخبر إلى السلطان. فعليكم أن تبعثوا رسولا إلى نائبى بالجزائر، ولدي حسن باي».

انطلقت الحيلة على الكافر دوريا، وشُرَّ سرورا عظيمها عندما أبديت له رغبتى في خيانة دولتى. أما أنا فقد أرسلت سيرا إلى حسن باي بتعليقاتى، أعلمه فيها بما يجب عليه أن يفعله. كي أمرته بإلقاء رُسل الملك كارلوس مدة من الزمن، وخلال ذلك عليه أن يقوم بما يلزم من استعدادات لمواجهة أي تطورات مرتقبة.

لم يمض وقت طويل حتى وصلت رسل الملك كارلوس إلى الجزائر، فكان الوفد مكونا من ألونسو دي أالركون ALONSO DU ALARKON والقبطان فيرغارا KAPTAN VERGARA بمعية طبيب يهودي من رعايا الدولة العثمانية يدعى روميو ROMEO.

بعد أن مصت مدة على المفاوضات بين الجانبين، قام حسن باي بطرد الرسلين الكافرين الإسبانين من الجزائر، وأمر بتوقيف الطبيب اليهودي لكونه من رعايا الدولة العثمانية، وأرسله إلى إسطنبول حيث أمرت بحبسه في سجن يدي كولة YEDİ KULE.

كان تطور الأحداث يوحي بأنه لم يعد في وسعنا أن نتحدى أكثر في إلهاء الملك كارلوس بعد مروره بهذه التجربة المريرة. إلا أن عقل الإفرنج لا ينظر إلى الأمور بنفس المنظار الذي ينظر إليه العقل التركي. وبيان ذلك أنه في هذه المرة كتب إلي حسن باي يعلمني بأن الملك كارلوس عرض عليه أن يجعله

ملكاً على الجزائر، وكلف بحاكم الإسباني العام على وهران الكونت الكوديت KONT ALKODET لإقاعه تلك الحياة.

كنت أعرف الكوديت جيداً بأنه كافر إسباني في عاية التعصب، إلا أنه والحق يقال كان شجاعاً شجاعاً، وكان يعلم بأن إسبانيا لا يمكن أن يحون ملكه ودولته من أحل تاح ملكي. لكن ماذا عساه أن يفعل إذا كانت الأوامر فوقية ولا يسعه إلا تمليدها؟..

أما أن فقد كنت إلى حسن باي أطلب منه أن يستمر في إلقاء الكونت، وبذلك كانت موافقاً مطابقة لسياسة الوزير الأعظم كتب حسن باي إلى الكونت يقول له:

«إنكم تعتقدون بأنني قادر على انتزاع الجزائر من السلطان سليمان ولأجل ذلك عرضتم علي هذا الأمر. ولا ريب أنني أريد أن أدخل بين الملوك في صراعهم على الجزائر. إلا أنه يجب أن تعلموا بأنني عندما أخطو خطوة واحدة في هذا الطريق، فإن آلاف البحارة المعسكرين على ظهر الأسطول التركي سوف يقومون بتقييدي بالسلاسل وإرسالني إلى إسطنبول. ولذلك أرى بأنه عندما يرسل ملككم جيشه الكثيف، ويرسو أسطوله في سواحل الجزائر فإنني لن أدافع عن المدينة، وهناك يمكنكم القضاء على الأسطول التركي. وحينما تتمكنون من الاستيلاء على المدينة سوف تكون الجزائر كلها لكم».

كنت أتوقع نسبة ضئيلة جداً أن يتبع كل من الكويت ودوريا وملك إسبانيا العظيم هذا الطعم بسهولة إلا أن سرعة تصديقهم لي وحسن باي بأن سوف منجرف معهم في مسار الحياة الذي عرصوه علي وأخذهم لذلك مأخذ الحذر جعل حسن باي يصاب بالدهول!

كنت إلى حسن باي أطلب منه بأن يقوم بإلغائه ريشما آتي للأسطول العثماني من إسطنبول، فأدمن جميع من الكافر في أعماق البحر. إلا أنه لم يكن في وسعي التعجيل بالذهاب إلى الجزائر، لأنه ليس كارلوس محسب بل جميع قراصنته لن يتجرؤوا على الاقتراب من سواحل الجزائر عندما يرون الأسطول العثماني في غرب البحر المتوسط وسيدفعهم الخوف إلى الاحتماء خلف أسوار أول قنعة يصادفونها في طريقهم.

هكذا قصصاً ثلاث سنوات من معركة برورة، وحتى حمة كارلوس على الجزائر في مفاوضات سياسية كانت تبدو سحيقة جداً...

في الوقت الذي كان فيه مولانا السلطان سليمان خان عائداً إلى إسطنبول من حملته السطحية التاسعة، كان الملك كارلوس يحشد قواته لغزو الجزائر. لقد كان من المؤكد بأن الاستيلاء على الجزائر سوف يهدد الوجود العثماني بأكمله في شمال إفريقيا.

كان الأسطول الصليبي الذي جمعه كارلوس مكوناً من

خمسائة وست عشرة سفينة، منها مائتان وأربع وسبعين قادرة. وأما بقيتها فكانت عبارة عن سفن حربية معدة لخوض المعارك البحرية. دُعِمَ هذا الأسطول بخمسة وستين سفينة عملاقة، كل واحدة منها كانت تبدو وكأنها قلعة تسبح في عرض البحر. وأما عدد الجنود الذين استُقدِموا - عدا الجنديين - فقد بلغ: اثني عشر ألفا وثلاثمائة وثلاثين بحارا، وثلاثة وعشرين ألفا وتسعمائة جندي من القوات البرية. فصار مجموع المحاربين ستة وثلاثين ألفا ومائتين وثلاثين جنديا. وفوق هذا كانت الحملة الصليبية مدعومة بقصائل عسكرية مختلفة.

لم يكن ثمة أدنى شك في أن هذه الحملة التي تولى كارلوس قيادتها بنفسه سوف تُتَوَّج بالاستيلاء على الجزائر. ومن أجل ذلك كان قادة أوربا ونبلاؤها يتوقون للاشتراك في هذه الحملة إلى جانب ملوكهم. فكان على رأس هؤلاء أشهر نبلاء وأمراء إسبانيا وألمانيا وإيطاليا، الذين أبوا إلا أن يرافقوا الملك كارلوس في هذه الحملة.

\*\*\*

### رسالة الملك كارلوس

كان مع حسن باي ستمائة بحار تركي، وألهمي فارس عربي متطوع. ولكي لا يتعرض أسطولهم للتدمير، كان من الضروري أن يقوم بإبعاده عن مدينة الجزائر. وعليه؛ فقد كان من الطبيعي أن يركب معظم البحارة سفنهم، ويتعدوا بها عن ميناء المدينة. في اليوم الذي حرق فيه الملك كارلوس لغزو الجزائر" كتب إلى حسن باي رسالة باللغة التركية يقول له فيها:

"إن القوة التي تراها اليوم ليس أنت فحسب، بل إن سيدك الكبير لا يقدر على صدها. فإذا كانت لك عينان مفتوحتان وتملك ذرة من العقل، ألق سلاحك واربط رأسك بعتدليل، وأتني بمصاتيح قلعة الجزائر وإذا قُدمت عبي وقبّلت الأرض بين يديّ سوف أعفو عنك. فأنا ملك إسبانيا ونابولي وصقلية وهولندا وبلجيكا وأمريكا، وإمبراطور ألمانيا. إن أباك وسيدك بربروس قرّ فرّها مني بتونس لا يلوي على شيء. فحذار أن تفقد عقلك وتشهر السلاح في وجهي، لأنك إن فعلت ذلك فلنني أقسم بعيسى بآني سوف أُمَرِّقك، وأعلّق أشلاءك على

(٢) كان ذلك في 20 أكتوبر 1541 (بليار أوزتونا)

أبراح الجزائر...!.

وأجابه ولدي قارة حسن باي:

«إن قلعة الجزائر ليست ملكا لي حتى أسلمها لك. ولن أمكك من بلد مولانا السلطان سليمان لأبوء بخسارة الدنيا والآخرة وليكن معلوما لديك بأن قلبي لا يحمل ذرة خوف منك فأنت قد أمضيت حياتك في تلقي هزائم شنيعة أمام والدي خير الدين باشا، وأنا على يقين بأن الله تعالى سوف يتصرى عليك».

شرع كارلوس في مهاجمة القلعة بفرقه العسكرية الشجاعة. إلا أن المقاومة الباسلة التي قوبل بها في اليوم الأول جعلته يصاب بالذهول. ولما حل المساء سمح لعساكره بأن يأخذوا قسطا من الراحة في خيامهم. وفي صباح اليوم التالي وجد نفسه مضطرا إلى التراجع عندما أحس بأن قواته على وشك الانهزام.

«أيتها الليلة المباركة ليكن فيك ما هو مقدر في عالم الغيب.. إن أرض الجزائر التي امتزح ترابها بدماء أخي عزوج وآلاف الشهداء من رفاقه الدين قدموا من الأناصول والرومي أتراها ستبقى بأيدينا أم ستسقط في يد الكافر؟ لا ريب أن ذلك كله سوف يتبين في هذه الليلة...».

أنزل الكفار من سفهم مئات الجرار المملوءة حمرا، وجعلوا يعاقرونها حتى الشالة محتفلين باستيلائهم على مدينة الجزائر

التي كانوا يتوقعون سقوطها في أيديهم صبيحة اليوم التالي. وبسما قضوا ليلتهم تلك في هو ومحو؛ لم يكن البحارة الذين تحصنوا بقلعة الجزائر والذين لم يكن عددهم يزيد عن مائة رجل يحملون في قلوبهم ذرة خوف من الإسبان..

دس حسن باي جواسيسه في صفوف العدو بعدما ارتدوا ملابس فرسان إسبانيا. لقد كان كثير من بحارتنا يجيدون التحدث بالإسبانية كما لو كانت لغتهم الأم. بل كان من بينهم من أمضى عشر سنوات أسيرا يجدف السفن الإسبانية

أعلم الجواسيس حسن باشا بأحوال الإسبان، فأدرك ولدي بأنه إذا كان ثمة شيء يمكن فعله فهذه الليلة هي الوقت المناسب لذلك، وإلا فإن الأمر سوف يكون سيئا جدا في الصباح. ولأجل ذلك أمر بحارته ومن معهم من المتطوعين بسلوك طريق جبلي حتى ينزلوا خلف معسكر العدو.

في هذه الأثناء غاب القمر خلف الغيوم وساد الجو ظلام دامس. وسرعان ما بدأت الأمطار تنزل بغزارة، قبل أن تتحول إلى عاصفة شديدة. كانت تلك العلامات تشعرنا بأن الله عز وجل يريد أن يرينا بأنه مع عباده المجاهدين بنصره وتأييده.

توغل رجالي في صفوف العدو. ولم يكن الظلام الخالك والعاصفة الشديدة هما اللذان حجبا الرؤية عن الإسبان فحسب؛ بل إن الله سبحانه كان قد ألقى على عيونهم ستائر الغفلة. فقد



كان جنود العدو في حالة سكر شديد، وقد ألبأهم شدة المطر إلى الاحتياء بخيمهم كالكلاب الضالة. أما الحراس فقد تركوا مواقعهم وتناثروا هنا وهناك، كل منهم يبحث عن مكان يقيه من هول العاصفة.

«يا من جلست قدرتك أنت الذي تطلقت بنصرة فئة قليلة من عمادك المحاهدين، بهذه العاصفة التي تعيث بالكافر كارلوس وأسطوله لتتقاذفه الأمواج المتلاطمة. إن ذلك لدليل لطفك ورحمتك».



## جاء التركي الكبير

بدأت بوادر لطف الله تعالى تتجلى في حيات البرد الذي أخذ ينزل في حجم حيات البيض، فلم يبق في المعسكر كافر واحد قادر على الاحتياء بخيمه. وبإزاء ذلك أخذ هيجان البحر يتصاعد حتى غدا كقدر في ذروة غدياته. وشرع الكفار في العمل على تفادي غرق سفنهم وزوارقهم.

وفي منتصف الليل أغار حسن باي على معسكر العدو، وأعمل السيف في رقاب جنوده. فأخذ الكفار يصرخون مذعورين لقد هاد بربروس من إسطنبول.. لقد جاء التركي الكبير! وعلى وقع المفجأة كان ثلاثة آلاف كافر قد سقطوا تحت ضربات سيوف البحارة.

لم ينم الكفار حتى الصباح، واستقبلوا طلوع الشمس في حالة يرثى لها إلا أن مهاجمات اليوم الجديد لم تكن تحمل هم ما يسرهم. لقد كانت مشاعر الخوف والتردد والعصبية مهيمنة على قلب وعقل الملك كارلوس، لأنه كان ينتظر في قلق شديد أن تنوح في الأفق أشعة الأسطول العثماني بين لحظة وأخرى.

بالرغم من أجواء التوتر التي كانت تسيطر على العدو، إلا أن وضعه ولدي قارة حسن لم تكن تدعو للارتياح. فأهالي الجزائر لا يزالون يتذكرون ما حدث لمدينة تونس

وأهاليها قبل بضعة أعوام. ولذلك كانوا يريدون إخبار الأتراك على الاستسلام غير أن الأحداث كانت توحى بأن الذي يتمكن من الشات سوف ينتصر.

لم يكن يبدو على الملك كارلوس شيء من هذا الشات. بل كانت الأحوال الجوية الأخذة في السوء توحى بأن الله قد أنزل عصفه على هؤلاء الكفار فقد أصدر أوامره إلى جنوده بالعودة إلى الأسطول، كما أمر دوريا بأن يكون على أهبة الاستعداد لتحركه بالأسطول ومغادرة الجزائر.

كان حسن يراقب انسحاب العدو من مواقعه وتدفق قواته نحو الساحل كالسيل الجارف، حيث أخذ رجاله يتدافعون على السفن لدجاة بأنفسهم. وهنا انتهز الفرصة ليشن هجوما مباغتاً عليه

وما إن رأى البدو انسحاب العدو حتى كادت عقولهم تطير من شدة الفرح، فقويت بهوسهم واندفع الآلاف منهم من تلقاء أنفسهم وسط البحارة تحذوهم الرغبة في الغنيمة.

كان جنود العدو قد أنهكهم الجوع والعطش، وخارت قواهم من شدة التعب. وسيطر الرعب على الملك كارلوس حتى لم يعد قادراً على تحديد الوجهة التي يجب أن يلود بها فقد تلاشت قواته تماماً، وضاعف من متاعه جهله بالبلاد التي أراد غروها، فكثرت أخطاؤه الخربية التي استغلها جميعاً حسن باي لصالحه.

اضطر العدو إلى إنزال أكثر من نصف أسطوله إلى الر سبب العواصف الشديدة، إلا أنه لم يتمكن من ربطها ببعضها البعض حتى لا تحرفها المياه. فانتهاز البحارة تطور الأمور على النحو الذي أشرنا إليه فقاموا بربط سفن العدو وسحبها إلى الحرائر، ولم يكتفوا بذلك بل قاموا بالاستيلاء على جميع ما حلفه كارلوس من مدافع وذخائر وآلات الحرب.

على هذا النحو وفي هذه الظروف تم القضاء على عشرين ألف كافر إما غرقاً وإما بسيف البحارة، ومن نجا منهم وقع في الأسر. كان في أسطول العدو أربعة آلاف فارس، تلقت كلها إما غرقاً وإما نحراً من طرف الكمار، الذين تاهوا في أطراف البلاد ولم يجدوا ما يأكلونه سوى خيولهم لقد كانت تلك الأفراس من أجمل الخيول التي لا تقدر بشئ.

استولى البحارة على مدافع العدو، وشرع جنوده الذين نجوا من القتل والعرق في تسليم أنفسهم جماعات وفرادى وأما درود العدو فقد تملل بالماء ولم يعد يصلح للاستعمال. كما علق كفار إسبانيا الذين كانوا يلبسون دروعاً معدنية في الأراضي الموحدة. وتناثرت جثثهم، وأشلاء حيواناتهم المقتتة على مسافات طويلة من ساحل الجزائر. وتكدست آلاف الجثث الأخرى تحت أنقاض السفن المحطمة. وعندما كان الكمار يلودون بالفرار لم يتمكنوا من حمل أي شيء ثمين معهم في



سفسهم، بل وقع كل ذلك في أيدي بحارتنا.

ازدادت مدينة الجزائر غنى بغنائم هذه الحملة. ووقع عدد كبير من الجنرالات والأميرالات والدوقات والأمراء والأميرات والنبلاء والفرسان وغيرهم من أبناء القصور والعائلات الكبيرة في الأسر. لقد قدم هؤلاء جميعا من مختلف عواصم أوروبا ليستمتعوا بمشاهدة احتلال الجزائر. وفي هذه الحملة لم يتمكن دوريا ومن معه من إنقاذ أنفسهم إلا بصعوبة بالغة.

إن هذا الظالم العائد إلى بلاده يجر أذيال الخيبة قد قام بإحراق آلاف البشر في العالم الجديد<sup>(1)</sup>. فأراد هذا الملعون الكافر أن يتسلط على الجزائر لأنه ظن بأنها مثل العالم الجديد. الويل لبلدة مسلمة تقع في يد هذا الظالم.. ترى كيف سيكون مصيرها؟.. لقد ضرب لنا الكافر مثل السوء عن ذلك في تونس قبل سنوات مضت

\*\*\*

(1) يشير بذلك إلى أمريكا التي اكتشفت حديثا ولم يكن اسم «أمريكا» قد أطلق عليها بعد في هذه المرحلة حسبما يفهم من سياق النص. كما يلاحظ أن أخبار الإبادة الجماعية التي كان الإسبان يقومون بها في حق الهنود الحمر قد بلغت خير الدين باشا حتى صارت يضرب بها المثل في الوحشية.

## الملك يأكل لحم فرسه

كان دوريا يمطر الحارة بوابل من القذائف من سفينة الحربية. غير أن تلك القذائف لم يكن لها تأثير يذكر سوى إثارة الحارة واستفزازهم مما جعلهم يصرون على التصدي له وإلحاق الهزيمة به.

في هذه الحملة ساق النصارى معهم آلاف المسلمين لاستخدامهم جذافين في السفن. ونتيجة للعواصف التي أشرنا إليها غرق الآلاف من هؤلاء البؤساء في البحر. إلا أن عزيمة وإصرار حسن باي مكّنته من تخليص ألف وثلاثمائة أسير.

وأما دوريا فقد تعرضت سفينة القيادة التي كان يركبها للغرق. بينما نجا ذلك الجنوي<sup>(1)</sup> الكافر بجلده عندما قفز من سفينته الغارقة وركب سفينة أخرى ولاذ بالفرار.

كانت وضعية الصليبيين قد بلغت درجة من السوء يعجز اللسان عن وصفها. وأما الملك كارلوس فإنه في الوقت الذي كان يملك نصف أوروبا إلا أن الهزيمة الشنعاء التي مني بها أمام أسوار الجزائر دفعته إلى ذبح فرسه الثمينة ليقتات بلحمها!..

(1) نسبة إلى مدينة جنوة الإيطالية التي ينحدر منها أندريا دوريا. فهو لم يكن إسبانيا وإنما كان قرصانا مرتزقا عند الملك كارلوس.

وعندما كان يلود بالهرار من الجزائر مهزوما حلق ناجحه من رأسه وألقى به في البحر من شدة الغيظ. لقد شعل باله بمولانا السلطان سليمان حن ورام الانتصار عليه مع أنه لم ينشأ قط نشأة عسكرية مثل مولانا السلطان، ولم يتول قيادة أي جيش بمفرده طيلة حياته وهو في ذلك كان جاهلا كلياً بفنون الحرب وعلوم البحار. فأنى له أن ينتصر على مولانا السلطان سليمان خان؟<sup>١</sup>

إن هذا الملك المغرور بنفسه وقواته كاد أن يقع في الأسر لولا حماية فرسان مالطاله وقلة رجال حسن ناي.

لم يتمكن الأسطول الصليبي من الإقامة في أرض الجزائر الماركة سوى ثلاثة عشر يوماً بينما كانت ثلاثة أيام كافية لتقصاء عليه قضاء مُبرماً، لتسحب - بعد ذلك - السفن المهزومة إلى موانئ إسبانيا وإيطاليا محملة بالصليبيين المنشحين بأردية الخيلان أمام سيوف الأتراك. لقد كان لتلك الهزيمة دوي كبير في شتى أنحاء أوروبا حتى عدت غُصّة في حلوق الصليبيين تخنق عثراتهم من شدة التأثر.

بعد هذا الانتصار الكبير أطلق على ولدي حسن ناي لقب «الغازي»، وقد كانت رتبته العسكرية في هذا الوقت هي: «بحرية سنحق نايي»<sup>٢</sup>. وبعد هذه المعركة بفترة قصيرة وصلت

(٢) أي قائد لواء البحرية

إلى الجزائر وقامت بجولة في أرض المعركة. لقد كان سبب تأخري يعود إلى أني لم أكن أتوقع هجوم الملك كارلوس على الجزائر بهذه السرعة.

إن هزيمة كارلوس لم تكن على يد مولانا السلطان أو الوزير الأعظم أو أي وزير من ورائه ولا حتى على يد بيلربايي، لقد كانت على يد قائد لواء البحرية!! إن أورب لم تعش منذ عصور طويلة على وقع هزيمة مُدَوِّية لملك كبير كهذه، ولذلك فإن هذه الهزيمة سوف تحفر في ذاكرة التاريخ على أنها من الحوادث النادرة التي قلما تتكرر.

إن كارلوس هذا هو نفس الملك الذي سبق أن انتصر على ملك كافر كبير مثل ملك فرنسا المدعو فرسوا الأول، وأخذه أسيراً بعد معركة لم تدم سوى بضع ساعات!!.

بعد المعركة استخرج ولدي حسن من سفن الكهفار العارقة قرب الجزائر مائة وخمسين مدفعاً، حيث تم تصليحها وسحبها إلى الجزائر. لقد كان عدد الأسرى كبيراً جداً فتم توزيع العديد منهم هنا وهناك على سبيل الهدية. وبسبب كثرتهم الأسرى فإن أسعار العبيد نزلت بشكل كبير جداً في سوق الرقيق. ومن جهة أخرى فإن حسن ناي قام بشحن ثلاثين سفينة من نوع قادرة على أنفس الهدايا التي خصصها لمولانا السلطان سليمان خان.

بعد تلك الزيارة عادت الجزائر متوحها إلى إسطنبول التي

وصلتها بعد واحد وعشرين يوما. لقد جعلت الهدايا المرسلة إلى مولانا السلطان نيران الحسد تضطرم في قلوب ملوك العصر. وأما قيادة الأسطول المحمل بالهدايا، فقد كان على رأسه دلي محمد رئيس الذي قام بزيارتي وتقبيل يدي بمجرد وصوله إلى إسطنبول، حيث تحدثت معه وسألته مطمئنا على أحواله قبل أن يسلمني رسالة ولدي حسن باي. قرأت الرسالة وسررت بها سرورا عظيما، ثم خرجنا متجهين إلى قصر السلطان أنا في المقدمة وخلفي دلي محمد رئيس متبوعا بثلاثين قبطانا يرافقهم عدد من البحارة يرتدون أزياء موشاة بحيوط ذهبية ويحملون الهدايا التي كانت ستقدم لمولانا السلطان



## عشرات الآلاف من العمال يشتغلون في المصنع السلطاني لبناء السفن

لم يأذن السلطان سوى لي ولمحمد رئيس وأربعة أو خمسة من كبار رياس البحر بالمشول بين يديه وأما الآخرون فقد كانوا ينتظرون خارج مجلسه السلطاني. سلمت رسالة حسن باي لمولانا السلطان، فقام بفتحها وقراءتها بنفسه على غير ما كنت تقضي به الأصول في استقباله لمثل هذه الرسائل، فأشرق وجهه عندما قرأها وأمر لرياس البحر بإتيي دينار وللبحارة بمائة دينار. كما أمر لكل رئيس من رياس البحر الذين تشرّفوا بالمشول بين يديه بخُلعة سلطانية. وتكرّم مولانا السلطان بقبول ألف أسير بعث بهم حسن باي كجند أفين للسفن. كما منح ولدي بيشان رتبة السيلربايلك والباشوية<sup>(١)</sup>. لا شك بأن ولدي عندما يرى هذا التكريم سوف يبكي من شدة الفرح بهذه الخطوة التي نأها لدى مولانا السلطان، فهو قد صار في نفس رتتي التي كنت أحتلها يومئذ.

(١) كانت هذه الرتبة تعني بأن حسن باي قد صار سيلربايا على الجرائر منذ هذا التاريخ. وقد عينه السلطان بهذه الرتبة مكافأة له على الانتصار الساحق الذي حققه بدحره لحملة شارلكن على الجرائر

كان بعض بحارة الجزائر يزورون إسطنبول لأول مرة، ذلك لأن أكثرهم كانوا من أبناء قرى الأناضول ومن هناك ذهبوا إلى الجزائر وقليل منهم من قدم من المدن الكبيرة.

اسهر البحارة عندما رأوا إسطنبول وتجولوا في مضيقتها<sup>(1)</sup> وزاروا حصونها وقلاعها وأسوارها المنيعة. وكم كانت دهشتهم عظيمة لما رأوا المصنع السلطاني لبناء السفن الذي كان يعج بعشرات الآلاف من العمال - بل قريبا من مئة ألف عامل - كلهم يشتغلون فيه كأنهم خلية نحل، فحمدوا الله كثيرا على كونهم تابعين لدولة على هذا القدر من القوة والعظمة.

وليت البحارة عناية خاصة، ولم أقصر في جعلهم يستمتعون بمختلف الأطعمة كالرفائق المحشية والبقلاوة. وخلال ذلك استقبلهم أثرياء إسطنبول المحبون للضيف في قصورهم الساحلية وقاموا بإكرامهم مثل كبار الشاوات.

قدم عدد من الشباب الراغبين في التجنيد من الأناضول، فأرسلت ثلاثمائة منهم ممن لهم معرفة بالبحرية. وأما الآخرون فقد عيبتهم في مصنع بناء السفن لكي يتعلموا ويتدربوا هناك. كما قمت بتجهيز خمس سفن من نوع قادرغة وشحنتها بالأسلحة

(1) يقصد مصيق الوسقور.

والدخائر ولوازم السفن وسلمتها لبلي محمد رئيس لكي يقوم بأحدها معه إلى الجزائر.

عاد محمد رئيس إسطنبول في خمس وثلاثين قطعة بحرية، فخرج مولانا السلطان سيلمان خان لتوديعه إلى سراي بورنو<sup>(2)</sup> فأخذت جميع السفن في إطلاق قذائف مدافعها في الهواء تحية لسلطان العالم. وبعد سبعة عشر يوما من السفر وصل القطع البحرية العثمانية إلى الجزائر.

أرسل مولانا السلطان بعد بضعة أيام خمس سفن أخرى إلى حسن باشا كما بعث إليه بسيف مرصع وبيشان النصر ليضعه على عمامته، وساعة مزينة بالجواهر، وخاتم مرصع بالعقيق، بالإضافة إلى الراية والخذعة السلطانية. وبهذا التكريم أصبح ولدي رسميا يدعى «الغازي قارة حسن باشا». أما ولدي فقد بعث إليّ بخمسمائة أسير هدية، فتساءلت: «ماذا عساي أن أفعل بكل هؤلاء العبيد؟» ثم لم ألبث أم وهبتهم جميعا للدولة

ومن ناحية أخرى بلعني أن الملك كارلوس أمضى شهورا عديدة معتكما في الكنيسة لا يعادها إلى غيرها، بل أشيع عنه

(1) سراي بورنو: هو الجزء الناتج من الشطر الأوربي لمدينة إسطنبول، وعليه يقع قصر طوب كابي أي القصر السلطاني في ذلك الوقت. وفي أسفله حديقة كول حانة الشهيرة.

أنه مات من شدة القهر<sup>(1)</sup>.

وهنا يمكنني أن أصع نهاية المذكراتي، وأحتمها بحمد الله عز وجل الذي أتاح لي -أنا العبد الضعيف- فرصا عديدة مكنتني من خدمة ديني ودولتي وسلطاني<sup>(2)</sup>.

\*\*\*

### نعت بحمد الله

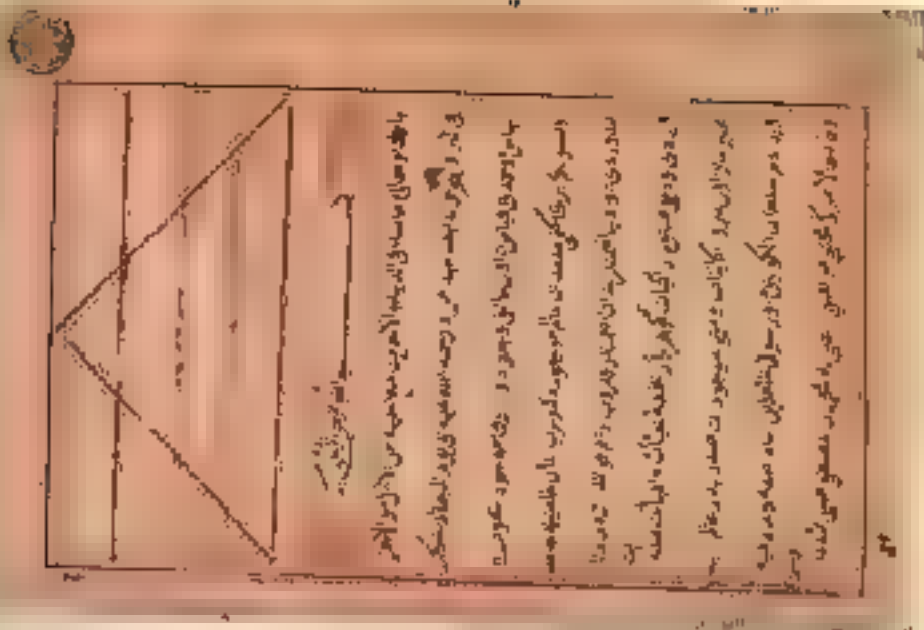
(1) يقصد أنه مات من شدة القهر الذي أصابه نتيجة للهزيمة التي مني بها في حملته على الجزائر.

(2) بين سنتي 1543 و 1544 خرج خير الدين بربروس في حملة على مرسا بناء على استنجد ملكها فرسوا الأول، وذلك لتحرير مدينتي الحويية من الاحتلال الإسباني فحاصر خير الدين في مرسيليا، وتمكن على إثر ذلك من طرد الإسبان من تولوز وبس، وبالرغم من كونه كان على قيد الحياة لم يشر إليها في مذكراته، ولعله كان قد فرغ من كتابتها قبل خروجه لغزو مرسا. بتاريخ 4 جويلية 1546 توفي خير الدين بربروس، وقد نأهز الثمانين من عمره المبارك ودفن في إسطنبول بمحاذة مضيق البوسفور بانشكتاش، في نفس المكان الذي اشتراه بنفسه وأوقفه لكي يدفن فيه، كما أشار إلى ذلك في موضع سابق من هذه المذكرات

## الملاحق

وهي مجموعة صور ووثائق نادرة جاء ذكرها في الكتاب  
أحيينا إطلاع القارئ الكريم عليها تكميلا للفائدة.





اللوحة الأولى من مخطوطة مكتبة جامعة إستانبول رقم 2490.



اللوحة الأخيرة من مخطوطة مكتبة جامعة إستانبول رقم 2490



صورة لبرج قلعة ميديلي  
(جزيرة ليسبوس - اليونان)



صورة خارجية لقلعة ميديلي



صورة خارجية لقلعة فرسان يودروم (جزيرة رودس - اليونان)



نموذج لقرمان (أمر) سلطاني موقع بحتم السلطان سليمان خان





مدينة الجزائر مطلع القرن 16 وعلى اليمين قلعة البنيون التي بناها  
الإسبان لمراقبة المدينة قام خير الدين بربروس بتدميرها وبناء ميناء  
الجزائر على أنقاضها



نموذج لسفينة قادрге التي  
أهداها السلطان سليمان  
القانوني لخير الدين بربروس



مجسم لسفينة من نوع  
قادрге عليها رايات  
خير الدين بربروس  
(متحف البحرية  
العثمانية بإستانبول)



لوحة تمثل قاعة  
الاستقبال الملكي  
بقصر طوب كاي  
سراي قديما



صورة لقاعة  
الاستقبال الملكي  
بقصر طوب كاي  
سراي حديثا



لوحة فنية تمثل معركة پروزة (28 سبتمبر 1538)



كل الحقوق محفوظة  
الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك : 7-1-9963-9961-978

رقم الإيداع : 2010-2857

تنضيد وتصميم : شركة الأصالة للنشر



شركة الأصالة للنشر والتوزيع

الجزائر العاصمة

تلفون : 21.762897 فاكس : 21.762157

جوال : 560.153010

E-mail : elassalah@hotmail.com

ELASSALA EDITION & DISTRIBUTION ALGER - ALGERIE



قبر خير الدين ببروس  
في (ساحل باشكتاش)  
وهي قطعة الأرض التي  
اشتراها وأوقفها ليدفن  
فيها مثلما ذكر في  
مذكراته



قبر خير الدين ببروس  
في الوسط



قطعة فضية تذكارية صنعت في ألمانيا سنة 1533 وعليها صورة  
المجاهد خير الدين ببروس

# محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
شكر وتقدير .....	أ
مقدمة المترجم .....	1
المذكرات .....	19
بدأت إملاء مذكراتي بأمر من السلطان سليمان القانوني .....	20
استقرار أبي يعقوب آغا في جزيرة ميدي وواجه بأمي .....	21
وقوع أخي عروج أسيرا في أيدي كفار جزيرة رودس ومكرهه .....	23
عندهم بضع سنين .....	23
فرار أخي عروج من سفينة فرسان رودس ونجاته .....	29
يجب أن تخلصوا من عروج .....	31
أخي يدخل في خدمة سلطان مصر .....	34
ظننت أن العالم كله صار ملكا لي .....	44
بارك الله في عزوكم .....	47
بدأ الكفار يهابوننا .....	49
أربع سفن صارت أربعة عشر .....	52
قطع ذراع أخي عروج .....	54
حبنا للبحر فوق كل حب .....	57
الفقراء يترقبون طريقتنا .....	60

لنا دعاء السلطان فصرنا أعزة في الدارين .....	64
مجوم عنيف على سفن الأعداء .....	70
الحرب مع إسبانيا .....	72
انتصار عروج رئيس .....	77
ضرب عنق الخائن .....	84
استشهاد عروج رئيس .....	86
لم يسمع أن أحدا انتزع بلدا من آل عثمان .....	101
الاستيلاء على تلمسان .....	103
خدعة حربية .....	106
بحار خائن .....	112
ثورة ابن القاضي .....	114
وغادرت الجزائر .....	117
تدمير في الجزائر .....	123
يربروس في الجزائر مرة أخرى .....	126
مقتل ابن القاضي .....	128
الدخول إلى الجزائر .....	131
وضع كافر في فوهة المدفع وقذفه في البحر .....	136
أيدين رئيس بين أيدي السلطان العظيم .....	143
لقد جعلتموني مسخرة بين الملوك .....	148
أيدين رئيس في المحيط الأطلسي .....	152
أسطولي يخرج في الحملة الحادية والعشرين إلى إسبانيا .....	158
ترقيتي إلى رتبة قبطان داريا .....	164



167	.....	وصرت على رأس أعظم أسطول في العالم
178	.....	وحشية الصليبيين في تونس
186	.....	معركة بروزة
190	.....	دورينا في حالة يرثى لها
193	.....	كارلوس يعرض على نجيانة مولاي السلطان!
199	.....	رسالة الملك كارلوس
203	.....	جاء التركي الكبير
207	.....	الملك يأكل لحم فرسه!
		عشرات الآلاف من العمال يشتغلون في المصنع السلطاني
211	.....	لبناء السفن

شركة الأصالة للنشر والتوزيع  
الجزائر العاصمة

تلفون : 21.762897 فاكس : 21.762157

جوال : 560.153010

E-mail : [elassalah@hotmail.com](mailto:elassalah@hotmail.com)

ELASSALA EDITION & DISTRIBUTION ALGER - ALGERIE